يوليوس قيصر

كامل كيلاني



يُولْيُوس قَيْصَر

يُولْيُوس قَيْصَر

تأليف
كامل كيلانى



يُولْيُوس قَيْصَر

كامل كيلانى

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٣٢١
تدمك: ٤ ١١٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

المحتويات

مُقَدِّمَةٌ

أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ:

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ مِنْ قِصَصِ «شِكِسْبِيرَ» الَّتِي وَعَدْتُكَ بِاقْتِبَاسِهَا (أَخْذِ خُلَاصَتِهَا) وَتَقْدِيمِهَا إِلَيْكَ.

وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى خُطَّتِي (سِرْتُ عَلَى طَرِيقَتِي) مَعَكَ فِي الْعِنَايَةِ بِاخْتِيَارِ أَحْسَنِ الْقِصَصِ، وَأَكْثَرِهَا رَوْعَةً وَجَمَالًا. كَمَا دَأَبْتُ عَلَى الرَّوِيَّةِ وَالتَّمَهُّلِ وَالتَّدَبُّرِ فِي صَوْغِهَا وَتَنْسِيقِهَا. وَكُلِّي ثِقَةٌ فِي أَنْ تَجْرِيَ مَعِي عَلَى سَجِيَّتِكَ (طَبِيعَتِكَ) فِي إِمْعَانِ الْفِكْرِ وَتَدْقِيقِ النَّظَرِ فِيمَا تَقْرَأُ، وَإِطَالَةِ الرَّوِيَّةِ فِي فَهْمِ مَا أَقُصُّهُ عَلَيْكَ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ — كَسَابِقَتَيْهَا — تَشْرَحُ لَكَ مِنْ دَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَأَسْرَارِ النُّفُوسِ مَا أَنْتَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى تَعَرُّفِهِ، لِتَسْتَنِيرَ لَكَ السَّبِيلُ؛ فَتَمْشِي عَلَى هُدًى.

وَلَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُعْجِبَةِ إِلَّا مَا يَرُوعُكَ وَيَفْتِنُكَ؛ إِذْ تَتَمَثَّلُ لَكَ فِيهَا: عَاقِبَةُ الْحَسَدِ، وَمَغَبَّةُ الْحِقْدِ، وَآخِرَةُ الْغَدْرِ. وَسَتَرَى: كَيْفَ تَنْتَهِي هَذِهِ الْخِلَالُ بِالْوَبَالِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَتُنْزِلُهُمْ — مِنْ أَسْمَى دَرَجَاتِ الْمَجْدِ — إِلَى أَحَطِّ دَرَكَاتِ الْمَهَانَةِ وَالشَّقَاءِ، وَأَسْفَلِ مَنَازِلِ الْهَوَانِ وَالذُّلِّ.

سَتَرَى مِصْدَاقَ هَذَا (تَلْمُسُ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ)، وَتَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ — آخِرَ الْأَمْرِ — وَيَخْفِقُ عَلَمُهُ (تَهْتَزُّ رَايَتُهُ)، ثُمَّ يَلْقَى الْآثِمُونَ مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الْعِقَابِ وَالتَّنْكِيلِ، جَزَاءً وِفَاقًا لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ إِثْمٍ، وَارْتَكَبُوهُ مِنْ عُدْوَانٍ.

وَهَأَنَذَا أَتْرُكُ الْحَدِيثَ لـ«شِكِسْبِيرَ»؛ فَهُوَ خَيْرُ مَنْ يُحَدِّثُكَ أَطْيَبَ الْحَدِيثِ، وَأَقْدَرُ مَنْ يَقُصُّ عَلَيْكَ أَبْدَعَ الْقَصَصِ.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

(١) فَاتِحَةُ الْقِصَّةِ

وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، فِي شَهْرِ مَارِسَ. أَعْنِي: أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ وِلَادَتِكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — بِأَلْفَيْ عَامٍ إِلَّا قَلِيلًا. تَسْأَلُنِي: فِي أَيِّ مَكَانٍ وَقَعَتْ تِلْكَ الْحَوَادِثُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي أَقُصُّهَا عَلَيْكَ؟

فَاعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ — أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي مَدِينَةِ «رُومَةَ» عَاصِمَةِ إِيطَالْيَا، وَمَهْدِ حَضَارَةِ الرُّومَانِ (الْمَوْضِعِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ).

(٢) بَهْجَةُ الْعِيدَيْنِ

وَكَانَتْ مَدِينَةُ «رُومَةَ» — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — تَسْتَقْبِلُ عِيدَيْنِ، وَتَبْتَهِجُ لِمُنَاسَبَتَيْنِ. أُولَاهُمَا: عِيدٌ عَامٌّ، تَحْتَفِلُ فِيهِ الْبِلَادُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ عَامٍ، وَيَتَبَارَى فِيهِ السَّبَّاقُونَ وَالْعَدَّاءُونَ (الْجَارُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ) وَمَنْ إِلَيْهِمْ. وَالثَّانِيَةُ: عِيدٌ خَاصٌّ، أَتَاحَتْهُ فُرْصَةٌ بِعَيْنِهَا، تِلْكَ هِيَ أَنَّ «يُولْيُوسَ قَيْصَرَ» — بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْمُعْجِبَةِ، وَزَعِيمَ الرُّومَانِ الْأَوْحَدِ — عَادَ إِلَى وَطَنِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُنْتَصِرًا عَلَى أَعْدَائِهِ، بَعْدَ أَنْ حَارَبَهُمْ، وَشَتَّتَ جُمُوعَهُمْ، وَشَرَّدَ جُيُوشَهُمْ كُلَّ تَشْرِيدٍ، وَنَكَّلَ بِهِمْ أَشَدَّ تَنْكِيلٍ، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَالنَّكَبَاتِ الْفَادِحَةَ.

(٣) خُصُومُ «قَيْصَرَ»

وَكَانَتْ جَمْهَرَةُ الْبِلَادِ، وَسَوَادُ الشَّعْبِ، يَسْتَقْبِلُونَ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ؛ فَرَفَعُوا الْأَعْلَامَ، وَزَيَّنُوا الْمَدِينَةَ بِطَاقَاتِ الْأَزْهَارِ وَالرَّيَاحِينِ، وَانْتَشَروا فِي الطُّرُقَاتِ؛ فَغَصَّتْ بِجُمُوعِهِمُ الْمَيَادِينُ — عَلَى رَحْبِهَا — وَامْتَلَأَتْ حَتَّى ضَاقَتْ بِوُفُودِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُبْتَهِجِينَ. وَلَمْ يَشِذَّ عَنْهُمْ — فِي هَذَا الْفَرَحِ الشَّامِلِ — إِلَّا فِئَةٌ قَلِيلُونَ مِنْ حُسَّادِ «قَيْصَرَ» وَمُنَافِسِيهِ، إِذْ كَانُوا لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَسْمَعُوا بِانْتِصَارِهِ، وَلَا تَقَرُّ نُفُوسُهُمُ الْوَضِيعَةُ (لَا تَطْمَئِنُّ وَلَا تَهْدَأُ) إِلَّا بِانْكِسَارِهِ وَانْدِحَارِهِ!

وَمَا عَرَفَ هَؤُلَاءِ الْحُسَّادُ مَوْعِدَ قُدُومِ «قَيْصَرَ» الْمُنْتَصِرِ، حَتَّى اشْتَعَلَتْ بِالْحِقْدِ قُلُوبُهُمْ، وَاضْطَرَمَتْ بِالْغَيْظِ نُفُوسُهُمْ (الْتَهَبَتْ)، وَوَدُّوا لَو قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُبَدِّلُوا بِهَذَا الصَّفْوِ كَدَرًا، وَيُحَوِّلُوا هَذِهِ الْأَعْرَاسَ الْمَعْقُودَةَ (الْمُهَيَّأَةَ الْمَنْصُوبَةَ) إِلَى مَآتِمَ وَمَنَاحَاتٍ.

(٤) الْحَاسِدَانِ

وَاشْتَدَّ الْحِقْدُ وَالْغَيْظُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ خُصُومِ «قَيْصَرَ»، فَأَعْمَيَاهُمَا عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ، وَطَوَّحَا بِهِمَا فِي هَاوِيَةٍ مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ!

وَكَانَ اسْمُ أَوَّلِهِمَا: «فلَفْيَاسَ»، وَاسْمُ الْآخَرِ: «مَرْلَاسَ».

فَخَرَجَا يَعْتَرِضَانِ الْجُمُوعَ الْمُتَدَفِّقَةَ الْمُنْدَفِعَةَ مِنَ النَّاسِ، لِيَصُدَّاهُمْ عَنْ مُظَاهَرَاتِهِمْ، وَيَمْنَعَاهُمْ مِنْ لِقَائِهِمْ لـ «قَيْصَرَ».

فَصَاحَ أَوَّلُهُمَا فِي أَحَدِ الْجُمُوعِ: «عَلَامَ تَتَجَمَّعُونَ؟ وَلِمَاذَا تَمْرَحُونَ؟ وَلِأَيِّ دَاعِيَةٍ تَرَكْتُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَانْصَرَفْتُمْ إِلَى الْبِطَالَةِ وَاللَّهْوِ؟»

(٥) جَوَابُ النَّجَّارِ

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ جُمُوعِ النَّاسِ قَائِدَانِ. فَالْتَفَتَ إِلَى أَحَدِهِمَا «مَرْلَاسُ» — أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: عَدُوَّيْ «قَيْصَرَ» — وَقَالَ لَهُ: «مَا صِنَاعَتُكَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ؟»



فَقَالَ لَهُ: «أَنَا — يَا سَيِّدِي — نَجَّارٌ.»

فَصَاحَ فِيهِ «مَرْلَاسُ»: «كَيْفَ هَجَرْتَ عَمَلَكَ؟ وَلِمَاذَا ارْتَدَيْتَ أَفْخَرَ ثِيَابِكَ؟ أَلَا قُبْحًا لَكَ وَتَعْسًا (شَقَاءً وَهَلَاكًا).»

(٦) حِوَارُ الْإِسْكَافِ

ثُمَّ الْتَفَتَ «مَرْلَاسُ» إِلَى الْقَائِدِ الْآخَرِ، وَسَأَلَهُ مُغْضَبًا: «وَأَنْتَ: مَا شَأْنُكَ؟ وَأَيُّ حِرْفَةٍ تَحْتَرِفُ؟»

فَقَالَ لَهُ: «أَنَا إِسْكَافٌ، يَا سَيِّدِي ... أُرْقِعُ النِّعَالَ الْقَدِيمَةَ، وَأُصْلِحُهَا، كَمَا يُصْلِحُ الطَّبِيبُ الْأَجْسَامَ الْمَرِيضَةَ. فَأَنَا أَشْفِي النِّعَالَ مِنَ الْهَلَاكِ، وَأَرُدُّ إِلَيْهَا الْحَيَاةَ ثَانِيَةً ...!»

فَقَالَ لَهُ «فلَفْيَاسُ» — زَمِيلُ «مَرْلَاسَ» — مُغْتَاظًا: «وَمَا بَالُكَ تُزْعِمُ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ الْحَاشِدِ (تَجْعَلُ نَفْسَكَ زَعِيمًا عَلَيْهِ)، وَتَطُوفُ بِهِ فِي الطُّرُقَاتِ وَالْمَيَادِينِ؟»

فَقَالَ لَهُ الْإِسْكَافُ مُجِيبًا: «لِأَنَّ فِي ذَلِكَ فَائِدَتَيْنِ: **الْأُولَى:** أَنْ أُبْلِيَ نِعَالَ الْمُتَجَمِّعِينَ؛ فَيُضْطَرُّوا إِلَى إِصْلَاحِهَا عِنْدِي؛ فَأَكْسِبَ بِذَلِكَ مَالًا. **وَالثَّانِيَةُ:** أَنْ أَظْفَرَ بِرُؤْيَةِ «قَيْصَرَ» الْمُنْتَصِرِ الْمَحْبُوبِ، وَأَمْلَأَ نَاظِرَيَّ بِوَجْهِهِ الْمُشْرِقِ الْوَضَّاحِ ...»

فَصَاحَ فِيهِ «مَرْلَاسُ» حَانِقًا (غَاضِبًا): «وَأَيُّ انْتِصَارٍ أَحْرَزَهُ «قَيْصَرُ»؟ وَأَيُّ غُنْمٍ نَالَهُ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ عَادَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِ؟»

(٧) خِطَابُ «مَرْلَاسَ»

ثُمَّ وَقَفَ يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ مُهْتَاجًا غَاضِبًا:

«الْوَيْلُ لَكُمْ، أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَنَسِيتُمْ حَفَاوَتَكُمْ وَاهْتِمَامَكُمْ — مِنْ قَبْلُ — بِخُصُومِ «قَيْصَرَ»؟ أَلَمْ تَهْتِفُوا — قَبْلَ الْيَوْمِ — لِقَائِدِكُمْ وَزَعِيمِكُمْ «بُمْبِي»؟ أَلَمْ تَمْلَئُوا لَهُ الْجَوَّ بِصِيَاحِكُمْ فَرِحِينَ مُهَلِّلِينَ؟ أَلَمْ تُفْعَمْ قُلُوبُكُمْ غِبْطَةً وَسُرُورًا، بِانْتِصَارِهِ وَفَوْزِهِ عَلَى أَعْدَاءِ الْوَطَنِ؟ فَمَا بَالُكُمْ تَجْتَمِعُونَ — الْيَوْمَ — لِتُحَيُّوا خَصْمَهُ؟ مَا بَالُكُمْ تَبْتَهِجُونَ بِانْتِصَارِ «قَيْصَرَ» عَلَيْهِ؟ أَلَا مَا كَانَ أَجْدَرَكُمْ بِالْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ، بَدَلًا مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ!

عُودُوا أَدْرَاجَكُمْ (ارْجِعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُمْ)، وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ، وَاذْهَبُوا — سِرَاعًا — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ «التيبر»، فَاذْرِفُوا فِي مِيَاهِهِ عَبَرَاتِكُمْ، وَأَسِيلُوا دُمُوعَكُمْ، ثُمَّ ارْجِعُوا وَاجْمَعُوا أَصْحَابَكُمْ، وَأَقِيمُوا الْمَنَاحَاتِ مَكَانَ الْأَعْرَاسِ!»

(٨) عِقَابُ الْحَاسِدِينَ

وَلَمْ يَكْتَفِ «مَرْلَاسُ» وَصَاحِبُهُ بِتَشْتِيتِ هَذَا الْجَمْعِ، بَلْ أَمْعَنَا فِي الْكَيْدِ، وَرَاحَا يَرْفَعَانِ الْأَزْهَارَ وَالرَّيَاحِينَ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَيُجَرِّدَانِ التَّمَاثِيلَ وَالنُّصُبَ (الْأَعْلَامَ الْمَنْصُوبَةَ) الْمُحَلَّاةَ بِهَا؛ حَتَّى لَا يَرَى الْقَيْصَرُ — فِي طَرِيقِهِ — شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ التَّكْرِيمِ لَهُ، وَالْحَفَاوَةِ بِهِ.

وَقَدْ بَذَلَا جُهْدَيْهِمَا فِي تَحْقِيقِ فِكْرَتِهِمَا الْآثِمَةِ؛ وَلَكِنَّهُمَا عَجَزَا جَمِيعًا عَنْ صَدِّ الْجُمُوعِ الْمُتَدَفِّقَةِ الْأُخْرَى. وَلَقِيَا عِقَابَ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الْخَرْقَاءِ (الْحَمْقَاءِ)، فَنَكَّلَ بِهِمَا أَنْصَارُ «قَيْصَرَ» وَجَرَّدُوهُمَا مِمَّا أَحْرَزَاهُ مِنَ النِّيَابَةِ (الْعُضْوِيَّةِ فِي الْبَرْلَمَانِ) وَأَلْقَابِ الشَّرَفِ.

(٩) نِدَاءُ الْعَرَّافِ

وَجَاءَ «قَيْصَرُ»، فَلَقِيَ مِنْ حَفَاوَةِ الْأَهْلِينَ وَابْتِهَاجِ الشَّعْبِ، مَا يَجْدُرُ بِأَمْثَالِهِ مِنْ كِبَارِ الْغُزَاةِ وَالْفَاتِحِينَ.

وَذَهَبَ «قَيْصَرُ» مُيَمِّمًا حَلْبَةَ السِّبَاقِ (قَاصِدًا مَيْدَانَهُ)، وَحَوْلَهُ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ (جَمَاعَةٌ مِنْ حَاشِيَتِهِ). وَصَدَحَتِ الْمُوسِيقَى، وَفَاضَ الْفَرَحُ وَالِابْتِهَاجُ عَلَى قُلُوبِ الْحَاضِرِينَ جَمِيعًا.

وَرَنَّ — فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ (نَوَاحِيهِ) — صَوْتٌ عَالٍ يُنَادِي الْقَيْصَرَ. فَقَالَ «قَيْصَرُ»: «مَنْ ذَا يُنَادِينِي؟»

فَسَادَ صَمْتٌ عَمِيقٌ، وَكَفَّتِ الْمُوسِيقَى، وَاشْرَأَبَّتِ الْأَعْنَاقُ (تَطَاوَلَتْ)، وَأَرْهَفَتِ الْآذَانُ. وَإِذَا بِصَوْتِ الْمُنَجِّمِ يُدَوِّي فِي الْفَضَاءِ، مَرَّةً أُخْرَى (وَالْمُنَجِّمُ هُوَ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تُرْشِدُهُ إِلَى ذَلِكَ). وَإِذَا الْمُنَجِّمُ يَقُولُ: «حَذَارِ — أَيُّهَا الْقَيْصَرُ — مِنْ مُنْتَصَفِ مَارِسَ!»

فَسَأَلَ «قَيْصَرُ» مَنْ حَوْلَهُ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ. فَقَالَ لَهُ صَدِيقُهُ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّهُ عَرَّافٌ (مُخْبِرٌ عَنِ الْغَيْبِ)، يُحَذِّرُكَ مُنْتَصَفَ هَذَا الشَّهْرِ!» فَاسْتَدْعَاهُ «قَيْصَرُ» إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ عَمَّا يَقُولُ؛ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْعَرَّافُ قَوْلَهُ: «حَذَارِ مُنْتَصَفَ مَارِسَ!»

فَهَزِئَ بِهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ سَاخِرًا: «مَا أَرَاكَ إِلَّا حَالِمًا قَدْ تَمَلَّكَكَ الْوَهْمُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْكَ الْخَبَالُ ...»

ثُمَّ ذَهَبَ «قَيْصَرُ» وَشِيعَتُهُ، لِيَشْهَدُوا حَلْبَةَ السِّبَاقِ.

(١٠) حِوَارُ الصَّدِيقَيْنِ

وَبَقِيَ «كَسْيَاسُ» وَ«بُرُوتَسُ» فِي مَكَانِهِمَا. فَقَالَ أَوَّلُهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: «أَرَاكَ بَاقِيًا حَيْثُ أَنْتَ، فَهَلِ اعْتَزَمْتَ أَلَّا تَحْضُرَ حَفْلَ السِّبَاقِ الْمُقَدَّسِ فِي هَذَا الْيَوْمِ؟»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّنِي لَا أَنْشَطُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلَاعِيبِ الْفَارِغَةِ، وَلَا أُحِسُّ رَغْبَةً فِي حُضُورِهَا.»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «حَسَنًا تَفْعَلُ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ (الْقَوِيُّ الصَّدَاقَةِ). وَمَا أَرَاكَ إِلَّا رَاشِدًا فِيمَا تَقُولُ. وَلَكِنْ أَتَأْذَنُ لِي فِي مُجَاهَرَتِكَ (إِخْبَارِكَ صَرَاحَةً) بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِي (يَدُورُ بِخَاطِرِي) مِنَ الْعَتْبِ عَلَيْكَ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ؟»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «جَاهِرْنِي بِمَا تَشَاءُ؛ فَلَيْسَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ.» فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «أَحَقٌّ مَا تَقُولُ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ؟ لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِي (وَقَعَ فِي قَلْبِي) أَنَّكَ

قَدْ أَصْبَحْتَ — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — مُتَنَكِّرًا لِي … وَقَدْ حَالَ وِدَادُكَ (تَغَيَّرَ)، وَاغْبَرَّ صَفَاؤُكَ (تَكَدَّرَ)؛ فَأَصْبَحْتَ عَابِسَ الْوَجْهِ، قَاسِيَ النَّظَرَاتِ، جَافَّ الْأَلْفَاظِ!»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَاهِمًا فِيمَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ أَحْزَانِي الدَّفِينَةَ لَا تَدَعُ لِي مَجَالًا لِلابْتِسَامِ. وَلَكِنَّ ثِقَتِي بِإِخْوَانِي، وَوَفَائِي لَهُمْ، لَمْ يَتَغَيَّرَا قَطُّ عَلَى كُلِّ حَالٍ.»

(١١) شَكْوَى «كَسْيَاسَ»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «لَقَدِ ابْتَهَجَتْ نَفْسِي لِمَا تَقُولُ. وَلَكِنَّ آلَامًا أُرِيدُ أَنْ أَبُثَّكَ إِيَّاهَا، وَأُطْلِعَكَ عَلَيْهَا: إِنَّ الْمَظَالِمَ قَدْ أَفْعَمَتْ قُلُوبَنَا أَسًى وَحُزْنًا. وَلَقَدْ أَجْمَعَ سَرَاةُ «رُومَةَ» (كُبَرَاؤُهَا وَأَعْيَانُهَا) عَلَى أَنَّكَ وَحْدَكَ زَعِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنَاطُ رَجَائِهَا، وَمَوْضِعُ أَمَلِهَا. كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّكَ — لَوْ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ نَفْسِكَ — قَادِرٌ بِمُفْرَدِكَ عَلَى تَفْرِيجِ كُرْبَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَشْفِ مَا تُعَانِيهِ مِنْ ضَائِقَةٍ وَحَيْفٍ (ظُلْمٍ وَإِرْهَاقٍ)، وَتَكْلِيفٍ بِمَا لَا يُطَاقُ.» فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ» وَاجِمًا: «إِنَّكَ لَتُكْبِرُ مِنْ أَمْرِي مَا صَغُرَ، وَتُعْظِمُ مِنْ شَأْنِي مَا حَقُرَ. وَمَا أَرَاكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ — إِلَّا مُورِدِي مَوَارِدَ الْهَلَاكِ (لَا أَظُنُّكَ إِلَّا ذَاهِبًا بِي مَذَاهِبَ الْمَوْتِ).»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَجْدَرَنِي أَنْ تُخْلِدَ (تَرْكَنَ) إِلَيَّ بِثِقَتِكَ. فَلَسْتُ إِلَّا مِرْآةَ نَفْسِكَ. وَمَا أَنَا بِكَاذِبِكَ الْقَوْلَ؛ فَأَنْتَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِصِدْقِي وَإِيثَارِي (اخْتِيَارِي) الْجِدَّ، وَبُعْدِي عَنِ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ وَالتَّمَلُّقِ. فَإِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ مَنَاطُ رَجَاءِ أُمَّتِكَ، فَلَسْتُ فِي هَذَا إِلَّا مُقَرِّرًا الْحَقِيقَةَ الْخَالِصَةَ، الَّتِي لَا يَشُوبُهَا أَقَلُّ رَيْبٍ (لَا يَخْتَلِطُ بِهَا أَيُّ شَكٍّ).»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّنِي أَبْذُلُ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِي فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ. وَمَتَى دَعَانِي دَاعِي الْوَاجِبِ لَبَّيْتُهُ مُسْرِعًا فَرِحًا، وَتَسَاوَى فِي نَظَرِي الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ.»

(١٢) حِقْدُ «كَسْيَاسَ»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «عَلِمَ اللهُ أَنَّنِي مَا شَكَكْتُ — لَحْظَةً وَاحِدَةً — فِي صِدْقِ عَزِيمَتِكَ، وَكَرَمِ نَفْسِكَ، وَإِجْلَالِكَ لِوَطَنِكَ. وَلَقَدْ حَفَزَتْنِي تِلْكَ الْخِلَالُ الْكَرِيمَةُ (دَفَعَتْنِي تِلْكَ الْأَخْلَاقُ النَّبِيلَةُ) الَّتِي عَرَفْتُهَا فِيكَ، إِلَى مُجَاهَرَتِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ: «لَقَدْ وُلِدْنَا — يَا أَخِي — أَحْرَارًا كَمَا وُلِدَ «قَيْصَرُ»، وَلَنَا مِثْلُ مَوَاهِبِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَزَايَاهُ، إِنْ لَمْ نَرْجَحْهُ وَنَزِدْ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ أَنْقَذْتُهُ — ذَاتَ مَرَّةٍ — مِنَ الْغَرَقِ، بِقُوَّةِ سَاعِدِي، وَكَادَ يَهْلِكُ لَوْلَا مُسَاعَدَتِي. وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ وَصَلَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالزَّعَامَةِ، وَبَلَغَ أَعْلَى مَكَانٍ فِيهِمَا، وَأَصْبَحَ الشَّعْبُ يُقَدِّسُهُ، وَأَصْبَحْتُ أَنَا — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ — عَبْدًا ذَلِيلًا، أَنْحَنِي أَمَامَهُ، وَلَا أَجْرُؤُ عَلَى مُخَالَفَةِ إِشَارَتِهِ؟ …

لَقَدْ شَهِدْتُ هَذَا الرَّجُلَ يَشْكُو آلَامَ الْحُمَّى فِي «إِسْبَانِيَا»، وَرَأَيْتُهُ يَتَأَوَّهُ مِنْ آلَامِ الْمَرَضِ كَمَا يَتَأَوَّهُ الْأَطْفَالُ، وَيَئِنُّ كَمَا يَئِنُّ الْعَجَزَةُ. وَهَأَنَذَا أَرَى ضَعْفَهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى قُوَّةٍ، وَعَجْزَهُ يَصِيرُ إِلَى قُدْرَةٍ، وَأَرَاهُ يَبْطِشُ بِالْأَقْوِيَاءِ، وَيَفْتِكُ بِالْقَادَةِ، وَيُطِيحُ الْأَبْطَالَ وَالزُّعَمَاءَ (يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ). وَمَا أَرَانَا إِلَّا جَدِيرَيْنِ بِالْمَهَانَةِ وَالِاحْتِقَارِ، مَا دُمْنَا نَتْرُكُ لَهُ الْحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ، وَنَدَعُهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا نَقِفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ. وَمَا أَدْرِي — وَاللهِ — كَيْفَ أُتِيحَ لَهُ كُلُّ ذَلِكَ التَّوْفِيقَ؟ وَأَيُّ رَنِينٍ فِي اسْمِهِ قَدْ خَلَبَ أَلْبَابَ الشَّعْبِ (سَحَرَهَا)، وَفَتَنَ عُقُولَ الْجُمْهُورِ؟ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ: «بُرُوتَس» وَ«قَيْصَرُ»، وَانْطِقْ بِهِمَا جَمِيعًا، وَوَازِنْ بَيْنَ أَحْرُفِهِمَا، فَهَلْ تَرَى أَحَدَهُمَا يَقِلُّ عَنِ الْآخَرِ عُذُوبَةً فِي اللَّفْظِ، وَرَنِينًا فِي الْأُذُنِ؟»

وَمَا زَالَ «كَسْيَاس» مُتَفَنِّنًا فِي ضُرُوبِ الْكَيْدِ لِقَيْصَرَ، مُتَمَدِّحًا بِخِلَالِ «بُرُوتَس» وَمَزَايَاهُ، حَتَّى هَاجَهُ وَأَوْغَرَ صَدْرَهُ (أَشْعَلَهُ غَيْظًا) عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «قَيْصَرَ»، وَحَفَزَهُ إِلَى الْفَتْكِ بِهِ، وَالِانْتِقَامِ مِنْهُ.

(١٣) عَوْدَةُ «قَيْصَرَ»

وَلَمَّا عَادَ «قَيْصَرُ»، لَمَحَ «كَسْيَاسَ» وَهُوَ يُحَادِثُ «بُرُوتَسَ»؛ فَهَمَسَ «قَيْصَرُ» فِي أُذُنِ رَفِيقِهِ الْوَفِيِّ «أَنْطُنْيُوسَ»: «مَا أَعْجَبَ هَذَا الرَّجُلَ الْخَطِيرَ، وَمَا أَشَدَّ دَهَاءَهُ، وَأَعْظَمَ مَكْرَهُ، وَمَا أَقْبَحَ نَظَرَاتِهِ، وَأَكْثَرَ هَوَاجِسَهُ (خَوَاطِرَ نَفْسِهِ)!»

فَقَالَ لَهُ «أَنْطُنْيُوسُ»: «لَا عَلَيْكَ، وَلَا يَسُؤْكَ هَذَا، فَهُوَ — يَا سَيِّدِي — طَيِّبُ الْقَلْبِ، كَرِيمُ الْأَصْلِ.»

فَقَالَ «قَيْصَرُ»: «إِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَائِنًا كَانَ؛ وَلَوْ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخْشَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، لَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ وَحْدَهُ مَصْدَرَ حَذَرِهِ، وَمَبْعَثَ خَوْفِهِ. أَلَا تَرَاهُ شَاحِبَ الْوَجْهِ، مَهْزُولَ الْجِسْمِ، كَثِيرَ الْإِطْرَاقِ، دَائِمَ التَّفْكِيرِ، يَكَادُ لَا يَبْتَسِمُ؟ شَدَّ مَا تَدْهَشُنِي غَرَابَةُ أَطْوَارِهِ (أَحْوَالِهِ)، وَعُمْقُ نَظَرَاتِهِ! وَمَا أَظُنُّ «كَسْيَاسَ» هَذَا يَرْتَاحُ لَهُ بَالٌ، وَيَهْدَأُ لَهُ خَاطِرٌ، أَوْ يَظْفَرَ

بِرُتْبَةِ الزَّعَامَةِ، وَيَنَالُ غَايَةَ الْمَجْدِ. وَمَا أَرَاهُ يَظَلُّ لَيْلَهُ إِلَّا مُؤَرَّقًا (سَاهِرًا مَهْمُومًا)؛ لِأَنَّ فِي «رُومَةَ» رَجُلًا أَرْفَعُ مِنْهُ مَنْصِبًا، وَأَعْلَى مَكَانَةً، وَأَعْظَمَ جَاهًا.»

(١٤) حَدِيثُ «كَسْكَا»

ثُمَّ خَرَجَ «قَيْصَرُ» وَحَاشِيَتُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا «كَسْكَا». وَكَانَ «كَسْيَاسُ» قَدْ جَذَبَ فَضْلَ رِدَائِهِ (طَرَفَ ثَوْبِهِ)، لِيَحْجُزَهُ مَعَهُ قَلِيلًا، ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا حَدَثَ فِي حَفْلَةِ السِّبَاقِ. وَكَانَ «كَسْكَا» يَمْقُتُ «قَيْصَرَ» أَشَدَّ الْمَقْتِ، وَيُبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ؛ فَرَاحَ يَقُصُّ عَلَى «كَسْيَاسَ» وَ«بُرُوتَسَ» — بِعَيْنِ الْحَاقِدِ الْمَغِيظِ الْمُحْنَقِ — مَا رَآهُ فِي تِلْكَ الْحَفْلَةِ، وَيَقُولُ لَهُمَا: «إِنَّهَا كَانَتْ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقِصَّةٍ تَمْثِيلِيَّةٍ سَخِيفَةٍ. فَقَدْ عَرَضَ «أَنْطُنْيُوسُ» التَّاجَ عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» — عَلَى مَرْأًى مِنَ النَّظَّارَةِ (الْمُشَاهِدِينَ) — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرُ» مُتَظَاهِرًا بِالزُّهْدِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. وَقَدْ خُدِعَ الْحَاضِرُونَ، فَصَفَّقُوا لِذَلِكَ التَّمْثِيلِ، وَقَذَفَ الْعَامَّةُ بِقَلَانِسِهِمْ (أَغْطِيَةِ رُءُوسِهِمْ)، وَتَعَالَتْ صَيْحَاتُهُمْ سُرُورًا.»

ثُمَّ خَرَجَ «كَسْكَا»، بَعْدَ أَنْ لَعَنَ «قَيْصَرَ»، وَحَقَّرَ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ لَهُ حِقْدُهُ. وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يُحَبِّذُ قَوْلَهُ، حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسُ «بُرُوتَسَ» حِقْدًا عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ»، وَكَرَاهِيَةً لَهُ. وَخَرَجَ «بُرُوتَسُ» عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَ «كَسْيَاسَ» فِي دَارِهِ، فِي فَجْرِ الْغَدِ.

(١٥) لَيْلَةٌ هَائِلَةٌ

وَقَدِ الْتَقَى «شِشِرُونُ» صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، فَرَآهُ يَرْعُدُ وَيُزَمْجِرُ وَيَهِيجُ غَاضِبًا، وَقَدْ شَهَرَ فِي يَدِهِ حُسَامَهُ (سَلَّ سَيْفَهُ)؛ فَسَأَلَهُ «شِشِرُونُ»: «أَيُّ خَطْبٍ أَفْزَعَكَ؟ وَأَيُّ أَمْرٍ خَوَّفَكَ؟»

فَقَالَ لَهُ «كَسْكَا»: «لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ الْمُفْزِعَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْأَحْدَاثِ وَالشُّئُونِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، وَشَهِدْتُ هِيَاجَ الْبَحْرِ، وَاصْطِخَابَ الْأَمْوَاجِ (اضْطِرَابَهَا)، وَثَوْرَةَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ (الرِّيَاحِ الَّتِي تَهُبُّ يَمِينًا وَشِمَالًا)، وَعُنْفَ الزَّوَابِعِ الَّتِي تَقْتَلِعُ الدَّوْحَ (الْأَشْجَارَ الضَّخْمَةَ)، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَرَ — فِي كُلِّ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُرَوِّعَاتِ — بَعْضَ مَا رَأَيْتُهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْهَائِلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ بِخَلَدِي أَنَّ الْعَوَاصِفَ تُمْطِرُ شَرَرًا، وَأَنَّ السَّمَاءَ تَقْذِفُ سَاكِنِي الْأَرْضِ نَارًا وَلَهَبًا! لَقَدْ هَوَتِ الصَّوَاعِقُ عَلَى بَعْضِ الْأَهْلِينَ فَأَحْرَقَتْهُمْ، وَرَأَيْتُ فِي طَرِيقِي عَبْدًا تَغْمُرُ النَّارُ جِسْمَهُ، وَنِسَاءً مَذْعُورَاتٍ شَاحِبَاتٍ (مُتَغَيِّرَاتِ الْوُجُوهِ) يَعْتَسِفْنَ الطُّرُقَاتِ (يَتَخَبَّطْنَ

فِي سَيْرِهِنَّ عَلَى غَيْرِ هُدًى)، وَقَدْ مَلَأَ الذُّعْرُ قُلُوبَهُنَّ. وَأَبْصَرْتُ أَسَدًا شَارِدًا فِي الطَّرِيقِ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَيَّ مُحْدِقًا، وَلَمْ يَمَسَّنِي بِأَذًى. وَقَدْ سَمِعْنَا الْبُومَةَ — ظُهْرَ أَمْسِ — تَنْعَبُ وَتُنْذِرُنَا بِالْوَيْلِ، فَعَجِبْنَا: كَيْفَ ظَهَرَتْ نَهَارًا، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا بِذَلِكَ عَهْدٌ؟»

فَقَالَ لَهُ «شِشِيرُونُ»: «مَا أَجْدَرَنِي بِالْعَوْدَةِ إِلَى دَارِي، فَإِنَّ الطَّرِيقَ مَخُوفَةٌ لَا تُشَجِّعُ عَلَى الْبَقَاءِ فِيهَا.»



وَمَا تَرَكَهُ «شِشِيرُونُ»، حَتَّى جَاءَ «كَسْيَاسُ»؛ فَحَيَّا صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، وَرَأَى مَا يُسَاوِرُهُ مِنَ الذُّعْرِ وَالْخَوْفِ؛ فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ أَحَبَّ إِلَى نَفْسِي مِنْ هَذِهِ الْعَوَاصِفِ الْمُلْتَهِبَةِ الثَّائِرَةِ؛ فَإِنَّهَا تُوقِظُ الْهِمَمَ، وَتُنْذِرُ بِأُمُورٍ جِسَامٍ (عَظِيمَةٍ). وَلَسْتُ أَرَى — فِي هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْهَائِلَةِ — إِلَّا إِنْذَارًا لِسَاكِنِي «رُومَةَ» بِطَرْحِ الْخُمُولِ وَالْكَسَلِ، وَشَحْذًا لِعَزَائِمِهِمُ الْخَائِرَةِ، وَتَقْوِيَةً لِهِمَمِهِمُ الضَّعِيفَةِ الْفَاتِرَةِ؛ لِيَنْتَقِمُوا مِنَ الظَّلَمَةِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَيُقَوِّضُوا صُرُوحَ الْبَغْيِ (يُسْقِطُوا بُيُوتَ الظُّلْمِ)، وَيَقْضُوا عَلَى نُفُوذِ «قَيْصَرَ» الَّذِي أَذَلَّ زُعَمَاءَ الْبِلَادِ، وَجَعَلَهُمْ لَهُ عَبِيدًا وَخَدَمًا.»

وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يَرَى — فِي ثَوْرَةِ الطَّبِيعَةِ وَطُغْيَانَهَا — مِثَالًا لِمَا يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ثَوْرَةِ الْحِقْدِ. وَقَدْ أَسَرَّ إِلَى «كَسْكَا» بِمَا يَشْتَعِلُ فِي صَدْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْكَيْدِ لـ«قَيْصَرَ». وَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى ضَمَّهُ إِلَى شِيعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ.

وَبَاتَ «كَسْيَاسُ» لَيْلَهُ سَاهِدًا (مُؤَرَّقًا لَا يَنَامُ)، يُدَبِّرُ مَكِيدَتَهُ، وَيَحْكُمُ مُؤَامَرَتَهُ الَّتِي اعْتَزَمَ إِنْفَاذَهَا فِي غَدَاةِ الْغَدِ (صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِي)، مَعَ رِفَاقِهِ الْحَاقِدِينَ، وَشِيعَتِهِ الْغَادِرِينَ.

الْفَصْلُ الثَّانِي

(١) وَسَاوِسُ «بُرُوتَس»

قَضَى «بُرُوتَس» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَظَلَّ طَرِيحَ الْفِرَاشِ، تَنْتَابُهُ الْوَسَاوِسُ، وَتُعَاوِدُهُ الْمَخَاوِفُ، وَلَمْ يَطْرُقِ الْكَرَى طَرَفَهُ (لَمْ يَزُرِ النَّوْمُ عَيْنَهُ). وَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ فِرَاشِهِ مَذْعُورًا، وَأَيْقَظَ خَادِمَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوقِدَ الْمِصْبَاحَ، ثُمَّ أَطْرَقَ «بُرُوتَس» مُفَكِّرًا، وَقَلْبُهُ يَفِيضُ أَسًى وَحُزْنًا، لِهَوْلِ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَ «بُرُوتَس» خَيْرَ صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَفِيٍّ لـ«قَيْصَرَ»، وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَى مِنْهُ إِلَّا مَا يُحِبُّ. لِهَذَا وَقَفَ «بُرُوتَس» مُتَرَدِّدًا حَائِرًا، يُحَاوِلُ أَنْ يُسَوِّغَ جَرِيمَتَهُ (يَجْعَلَهَا مَقْبُولَةً) أَمَامَ نَفْسِهِ، بَعْدَ أَنِ اعْتَزَمَ تَحْقِيقَهَا. وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا يُبِيحُ اقْتِرَافَ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنْعَاءِ. وَقَدْ أَعْوَزَتْهُ الْأَسْبَابُ، فَلَمْ يَجِدِ الْأَدِلَّةَ الَّتِي تُقْنِعُهُ بِصَوَابِ مَا سَمِعَهُ مِنْ «كَسْيَاس»، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ تِلْكَ الْأَسْبَابَ خَلْقًا.

(٢) مُسَوِّغَاتُ الْجَرِيمَةِ

فَقَالَ «بُرُوتَس» لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الطَّمَعَ بِلَا شَكٍّ سَيُغْرِي «قَيْصَرَ» بِظُلْمِ الشَّعْبِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى أَصْدِقَائِهِ. وَلَئِنْ صَحَّ مَا قَالَهُ «كَسْيَاس» لَيَكُونَنَّ إِنْقَاذُ «رُومَةَ» عَلَى أَيْدِينَا مِنْ عَسْفِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَجَوْرِ الظَّالِمِينَ، وَلَنَرْجِعَنَّ لِلنَّاسِ حُرِيَّتَهُمُ الْمَسْلُوبَةَ. أَلَا إِنَّنِي لَا أُضْمِرُ حِقْدًا لـ«قَيْصَرَ»، وَمَا كُنْتُ لَهُ عَدُوًّا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، وَلَكِنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِي خَيْرٌ مِنْ صَدَاقَتِهِ، وَحُرِيَّةَ

وَطَنِي أَثْمَنُ مِنْ إِرْضَاءِ «قَيْصَرَ». لَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يُتَوَّجَ عَلَى «رُومَةَ»؛ فَإِذَا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ، مَكَّنَّا لَهُ مِنْ رِقَابِنَا، وَأَذْلَلْنَا لَهُ أَعْنَاقَنَا، وَحَنَيْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ رُءُوسَنَا. إِنَّ «قَيْصَرَ» لَمْ يُسِئْ إِلَيْنَا، وَلَا إِلَى «رُومَةَ» قَطُّ، وَلَكِنَّهُ — إِذَا تَمَّ لَهُ مَأْرَبُهُ (مُرَادُهُ)، وَتَحَقَّقَتْ أَطْمَاعُهُ — لَنْ يَرْحَمَ كَائِنًا كَانَ، وَلَنْ يَتَوَرَّعَ عَنِ الْبَطْشِ بِرُءُوسِ «رُومَةَ»، وَقَتْلِ أَعْيَانِهَا. إِنَّ بَيْضَةَ الْأَفْعَى لَا بُدَّ أَنْ تُفْرِخَ بَعْدَ حِينٍ، ثُمَّ تُصْبِحُ حَيَّةً خَبِيثَةً مُؤْذِيَةً تَفْتِكُ بِكُلِّ مَا تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهَا. وَمَا أَجْدَرَنَا أَنْ نُحَطِّمَ الْبَيْضَةَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا الْحَيَّةُ. إِنَّ عَقْلَ «قَيْصَرَ» رَاجِحٌ لَمْ تُغَالِبْهُ الْأَهْوَاءُ وَالنَّزَعَاتُ الضَّارَّةُ، وَلَم يُغَيِّرْهُ النَّجَاحُ — فِيمَا نَعْلَمُ — وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ قَدْ حَذَّرَتْنَا أَنْ نَنْخَدِعَ بِتِلْكَ الْمَظَاهِرِ؛ فَإِنَّ الْعُظَمَاءَ جَمِيعًا يَتَّخِذُونَ التَّوَاضُعَ — فِي بَدْءِ حَيَاتِهِمْ — مِرْقَاةً إِلَى أَطْمَاعِهِمْ، وَسُلَّمًا لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِمْ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الْقِمَّةَ، نَسُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَتَطَلَّعُوا إِلَى سَمَاءِ الْعَظَمَةِ. وَلَمْ يَذْكُرُوا السُّلَّمَ الَّذِي صَعِدُوا أَدْرَاجَهُ، وَارْتَقَوْا مَرَاتِبَهُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، وَلَمْ يَعْرِفُوا لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِمْ.»

(٣) بِطَاقَةُ الْمُؤَامَرَةِ

وَظَلَّ «بُرُوتَسُ» يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ التَّعِلَّاتِ الْخَاطِئَةِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي أَوْهَامِهِ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَادِمُهُ «لُسْيُوسُ» وَفِي يَدِهِ بِطَاقَةٌ أَلْقَى بِهَا الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِهِ، وَفِيهَا: «أَيُّهَا النَّائِمُ! اسْتَيْقِظْ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ، وَاقْتَدِ بِأَسْلَافِكَ (اتَّبِعْ مَنْ قَبْلَكَ) مِنَ الْفَاتِحِينَ؛ فَإِنَّ إِنْقَاذَ «رُومَةَ» لَنْ يَتِمَّ إِلَّا عَلَى يَدَيْكَ.»

وَمَا انْتَهَى «بُرُوتَسُ» مِنْ قِرَاءَةِ الْبِطَاقَةِ، حَتَّى سَمِعَ طَرْقًا بِالْبَابِ، وَكَانَ الْقَادِمُ «كَسْيَاسُ» وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ رِفَاقِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِـ«قَيْصَرَ»، وَهُمْ جَمِيعًا مُلَثَّمُونَ (مُغَطُّونَ أَوْجُهَهُمْ) لَا يَبْدُو مِنْهُمْ غَيْرُ أَعْيُنِهِمْ. فَأَمَرَهُمْ «بُرُوتَسُ» أَنْ يُمِيطُوا اللِّثَامَ (يَرْفَعُوهُ عَنْ وُجُوهِهِمْ)، وَقَالَ لَهُمْ: «لَسْنَا أَثَمَةً وَلَا مُجْرِمِينَ، فَمَا بَالُنَا نَعْمَلُ فِي الظَّلَامِ؟»

ثُمَّ جَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ سَاعَةً فِيمَا يَفْعَلُونَ. وَاقْتَرَحَ «كَسْيَاسُ» أَنْ يُقْسِمُوا جَمِيعًا عَلَى الْوَفَاءِ بِعُهُودِهِمْ لِوَطَنِهِمُ الْعَزِيزِ، وَالِانْتِقَامِ مِنْ «قَيْصَرَ» الْمُسْتَبِدِّ. فَصَاحَ فِيهِمْ «بُرُوتَسُ» صَيْحَةَ الْمُغْضَبِ الْحَانِقِ: «مَا حَاجَتُنَا إِلَى الْقَسَمِ، وَنَحْنُ رِجَالٌ لَا نَتَرَدَّدُ فِيمَا نَعْتَزِمُ؟ إِنَّ آلَامَنَا وَآمَالَنَا وَاحِدَةٌ، وَقَدْ آلَيْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا (أَقْسَمْنَا) أَنْ نَخْدُمَ الْوَطَنَ، وَنُنْقِذَ «رُومَةَ»

وَنَبْطِشَ بِالْمُسْتَبِدِّ الظَّالِمِ. فَإِذَا لَمْ نَكُنْ خَلِيقِينَ بِتَحْقِيقِ آمَالِ الْبِلَادِ، فَلَا خَيْرَ فِينَا، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْقَسَمِ.» فَأَمَّنُوا جَمِيعًا عَلَى رَأْيِهِ.

(٤) اقْتِرَاحُ «كَسْيَاسَ»

ثُمَّ قَالَ «كَسْيَاسُ»: «لَا فَائِدَةَ مِنْ قَتْلِ «قَيْصَرَ» إِذَا لَمْ نُتْبِعْهُ قَتْلَ صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «أَنْطُنْيُوسَ»؛ حَتَّى لَا يَهِيجَ الشَّعْبَ، فَيُحَرِّضَهُ عَلَى إِيذَائِنَا وَالِانْتِقَامِ مِنَّا.»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الِاقْتِرَاحِ، وَإِلَّا أَصْبَحْنَا مُجْرِمِينَ سَفَّاحِينَ (مُسِيلِينَ لِلدِّمَاءِ مُحِبِّينَ لِلْغَدْرِ).

لَقَدِ اعْتَزَمْنَا أَنْ نُنْقِذَ الْبِلَادَ مِنِ اسْتِبْدَادِ «قَيْصَرَ» وَظُلْمِهِ، فَمَا ذَنْبُ «أَنْطُنْيُوسَ»؟ وَمَا بَالُنَا نَجْزَعُ مِنْهُ، وَهُوَ لَمْ يُسِئْ إِلَى وَطَنِنَا، وَلَم تَبْدُرْ مِنْهُ إِسَاءَةٌ إِلَى «رُومَةَ»؟ لَوْ أَنَّنَا قَدَرْنَا عَلَى إِزْهَاقِ رُوحِ «قَيْصَرَ» دُونَ أَنْ نُرِيقَ مِنْ دَمِهِ قَطْرَةً وَاحِدَةً، لَكُنَّا أَسْعَدَ النَّاسِ. وَلَكِنْ وَا أَسَفَاهُ! لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا مَعْدَى لَنَا (لَا مَخْلَصَ) عَنْ سَفْكِ دَمِهِ مُرْغَمِينَ، لِتَحْقِيقِ غَايَتِنَا النَّبِيلَةِ. وَلَوْلَا تَفَانِينَا فِي نُصْرَةِ الْوَاجِبِ وَخِدْمَةِ الْوَطَنِ، لَمَا فَكَّرْنَا لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ النَّكْرَاءِ.»

فَلَمْ يَجِدْ «كَسْيَاسُ» بُدًّا مِنْ مُوَافَقَةِ «بُرُوتَسَ» عَلَى مَا قَالَ.

(٥) فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ

ثُمَّ دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الِانْصِرَافِ، فَوَدَاعًا أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّبِيلُ، حَقَّقَ اللهُ آمَالَنَا، وَأَنْجَحَ مَسْعَانَا.

وَلَكِنَّنِي أَخْشَى أَنْ يَتَخَلَّفَ «قَيْصَرُ» فِي هَذَا الْيَوْمِ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَخَافُ وَيَتَطَيَّرُ (يَتَشَاءَمُ)، وَرُبَّمَا لَزِمَ بَيْتَهُ اتِّقَاءً لِمَا سَمِعَهُ مِنَ الْعَرَّافِ، وَمَا رَآهُ — اللَّيْلَةَ — مِنَ الْمُزْعِجَاتِ.»

فَقَالَ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ: «لَا يُهِمُّكُمْ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي كَفِيلٌ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ قَصْرِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَسَأَعْرِفُ كَيْفَ أَتَمَلَّقُهُ وَأَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ، وَأُزَيِّنَ لَهُ الذَّهَابَ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ حَتَّى لَا تُفْلِتَ مِنْ أَيْدِينَا هَذِهِ الْفُرْصَةُ الثَّمِينَةُ النَّادِرَةُ.»

وَهَكَذَا قَرَّ قَرَارُهُمْ، وَأَعَدُّوا عُدَّتَهُمْ لِلْفَتْكِ بِـ«قَيْصَرَ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ. ثُمَّ وَدَّعُوا «بُرُوتَسَ»، وَخَرَجُوا مَسْرُورِينَ بِمَا أَحْرَزُوهُ مِنْ فَوْزٍ وَشِيكٍ (نَجَاحٍ قَرِيبٍ).

(٦) حِوَارُ «پُرْشَا»

وَبَقِيَ «بُرُوتَسُ» غَارِقًا فِي وَسَاوِسِهِ وَأَحْلَامِهِ، وَإِنَّهُ لَيُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْمُؤَامَرَةِ الْخَطِيرَةِ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ «پُرْشَا».

فَدَهِشَ «بُرُوتَسُ» لِمَقْدَمِهَا، وَدُخُولِهَا عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُبَكِّرَةِ، وَسَأَلَهَا مُتَعَجِّبًا: «مَاذَا أَلَمَّ بِكِ، أَيَّتُهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ «پُرْشَا»: «مَا أَعْجَبَ مَا يَبْدُو مِنْكَ مِنْ شُذُوذٍ فِي هَذَا الْيَوْمِ! تُرَى: أَيُّ شَيْءٍ قَدْ هَاجَ بِبَالِكَ، وَأَثَارَ هَمَّكَ وَغَمَّكَ، وَأَزْعَجَ خَاطِرَكَ؟ أَيُّ حَادِثٍ أَقَضَّ مَضْجَعَكَ (جَعَلَهُ خَشِنًا لَا تَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ)؟ وَأَيُّ عَارِضٍ غَيَّرَ مِنْ أَخْلَاقِكَ؟ وَمَا بَالُكَ أَبَيْتَ أَنْ تُجِيبَنِي لَيْلَةَ أَمْسِ، حِينَ سَأَلْتُكَ عَنْ مَصْدَرِ شَكْوَاكَ وَمَبْعَثِ أَلَمِكَ؟ أَلَسْتُ أَنَا زَوْجَكَ الْوَفِيَّةَ الْمُخْلِصَةَ الْبَارَّةَ؟ أَلَسْتُ جَدِيرَةً أَنْ تَثِقَ بِي، وَتُفْضِيَ إِلَيَّ بِدِخْلَتِكَ (تَبُوحَ لِي بِخَفِيٍّ أَمْرِكَ)؟ فَمَا بَالُكَ تُحَذِّرُنِي، وَتَكْتُمُ عَنِّي مَصْدَرَ أَلَمِكَ، وَتَحْجُبُ دُونِي سِرَّ مَتَاعِبِكَ؟ وَكَيْفَ تَتَسَلَّلُ مِنْ فِرَاشِي خُفْيَةً دُونَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا أَقَضَّ عَلَيْكَ مَضْجَعَكَ؟ وَلِمَاذَا تَنْتَفِضُ مَذْعُورًا — لَيْلَةَ أَمْسِ — حِينَ كُنَّا نَتَعَشَّى، وَتَمْشِي فِي أَنْحَاءِ الْغُرْفَةِ ضَامًّا ذِرَاعَيْكَ إِلَى صَدْرِكَ، حَائِرَ النَّظَرَاتِ، يَكَادُ الْأَسَى يَفْتِكُ بِكَ، وَأَنْتَ تَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ (تَتَنَفَّسُ طَوِيلًا مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ)، وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْكَ الذُّهُولُ وَالْحَيْرَةُ؟ فَلَمَّا سَأَلْتُكَ — فِي رِفْقٍ وَحَنَانٍ — عَمَّا أَلَمَّ بِكَ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْخُطُوبِ، ثَارَ ثَائِرُكَ، وَنَظَرْتَ إِلَيَّ نَظْرَةً فِيهَا أَلْفُ مَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْقَسْوَةِ وَالْحِقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ. فَلَمَّا أَلْحَحْتُ عَلَيْكَ خَاشَنْتَنِي (أَغْلَظْتَ عَلَيَّ فِي الْكَلَامِ)، وَضَرَبْتَ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، وَلُذْتَ بِالصَّمْتِ، وَلَجَأْتَ إِلَى السُّكَاتِ، وَأَشَرْتَ إِلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لِشَأْنِي. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِذْعَانِ لِإِشَارَتِكَ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّنِي — إِذَا أَصْرَرْتُ عَلَى سُؤَالِكَ — أَلْهَبْتُ ثَوْرَتَكَ، وَحَمَلْتُكَ عَلَى التَّمَادِي فِي شَرِّكَ. وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَقْسُو فِيهَا عَلَيَّ. فَلَمْ تَكْتُمْ عَنِّي — أَيُّهَا الزَّوْجُ النَّبِيلُ — مَا تُحِسُّهُ مِنْ آلَامٍ؟ أَلَسْتَ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي شَرِيكَتُكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَحَلِيفَتُكَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَنَّنِي لَكَ صَادِقَةٌ أَمِينَةٌ، وَأَنَّكَ لِي نِعْمَ الزَّوْجُ الْبَارُّ الْوَفِيُّ الَّذِي لَا أَعْدِلُ بِهِ بَدِيلًا، وَالَّذِي هُوَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَثْمَنُ مِنَ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَبَاهِجَ وَأَفْرَاحٍ.»

(٧) رَسُولُ الشَّرِّ

وَمَا سَمِعَ «بُرُوتَسُ» مِنْ زَوْجِهِ هَذَا الْعِتَابَ الرَّقِيقَ، حَتَّى لَانَ جَانِبُهُ، وَسُرِّيَ عَنْهُ، وَطَابَ خَاطِرُهُ. وَهَمَّ بِأَنْ يُفْضِيَ إِلَى زَوْجِهِ بِدِخْلَتِهِ (يُحَدِّثُهَا بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ)، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ طَرْقًا بَالْبَابِ؛ فَوَعَدَهَا بِأَن يُخْبِرَهَا بِجَلِيَّةِ الْأَمْرِ (حَقِيقَتِهِ)، بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ ذَلِكَ الزَّائِرَ. وَلَمْ يَلْقَ «بُرُوتَسُ» ضَيْفَهُ، حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِـ«قَيْصَرَ»، جَاءَ إِلَيْهِ لِيَحْفِزَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ لِتَنْفِيذِ الْمُؤَامَرَةِ الشَّنْعَاءِ. فَارْتَدَى «بُرُوتَسُ» ثِيَابَهُ عَلَى عَجَلٍ، وَخَرَجَ مَعَ الزَّائِرِ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ زَوْجَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ، (يَتَرَدَّدُ فِيهَا) مِنَ الْوَسَاوِسِ الْمُزْعِجَةِ.

وَجَلَسَتْ «پُرْشَا» تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ زَوْجِهَا قَلِقَةً مَهْمُومَةً، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَا يَخْبَؤُهُ الْقَدَرُ مِنْ مُزْعِجَاتٍ وَأَحْدَاثٍ.

(٨) فِي بَيْتِ «قَيْصَرَ»

أَمَّا «قَيْصَرُ» فَقَدْ نَهَضَ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكِّرًا، وَهُوَ مُفَزَّعُ الْقَلْبِ، إِثْرَ مَا رَآهُ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْأَحْلَامِ الرَّاعِبَةِ (الْمُخِيفَةِ) فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ.

وَقَدْ قَضَتْ زَوْجُهُ «كَلْبُرْنِيَا» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَنَهَضَتْ مِنْ نَوْمِهَا خَائِفَةً مَذْعُورَةً مَرَّاتٍ ثَلَاثًا، وَهِيَ تَصِيحُ مُرَوَّعَةً مُفَزَّعَةً: «وَا غَوْثَاهُ! وَا مُصِيبَتَاهُ! أَدْرِكُوا «قَيْصَرَ». لَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْفُتَّاكُ الْآثِمُونَ، وَأَنْشَبُوا فِي جِسْمِهِ خَنَاجِرَهُمُ الْمَاضِيَةَ، أَدْرِكُوهُ فَإِنَّ الدِّمَاءَ تَتَدَفَّقُ مِنْ جَسَدِهِ!»

وَلَقَدْ ذُعِرَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَصْرِ لِصَيْحَاتِهَا، وَفَزِعُوا لِفَزَعِهَا، وَحَاوَلُوا جُهْدَهُمْ أَنْ يُسَرُّوا عَنْهَا؛ فَذَهَبَتْ مَسَاعِيهِمْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ (ضَاعَتْ بِلَا فَائِدَةٍ). فَلَمَّا أَصْبَحَتْ، حَاوَلَتْ جُهْدَهَا أَنْ تَمْنَعَ «قَيْصَرَ» مِنَ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ» أَبَى أَنْ يَسْمَعَ لَهَا قَوْلًا، وَهَزَأَ بِكُلِّ مَا رَآهُ وَسَمِعَهُ مِنَ النُّذُرِ (النَّصَائِحِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي أُنْذِرَ بِهَا وَحُذِّرَ)؛ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَسْتُ مِمَّنْ يُعْنَى بِسَفْسَافِ الْأُمُورِ وَحَقِيرِهَا، وَتَافِهِ الْأَشْيَاءِ وَصَغِيرِهَا. وَلَكِنَّنِي أَشْعُرُ — مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِي — بِشُؤْمِ هَذَا الْيَوْمِ وَنَحْسِهِ، وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ مُتَوَسِّلَةً أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ.»

فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرُ»: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ، وَلَا يَجْزَعُ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْكَوَارِثِ، وَلِقَاءِ الْمَصَائِبِ. وَلَيْسَ «قَيْصَرُ» مِمَّنْ يَخَافُ الرَّدَى، وَيَخْشَى الْمَوْتَ.»

فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَقَدْ سَأَلْتُ الْعَرَّافِينَ، فَحَذَّرُونِي هَذَا الْيَوْمَ، وَأَوْصَوْا جَمِيعًا بِمَنْعِكَ مِنَ الْخُرُوجِ، حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ.»

فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرُ» هَازِئًا: «لَسْتُ بِالْوَالِهِ الْمُلْتَاعِ (الْحَزِينِ الْمُتَوَجِّعِ)، وَلَسْتُ بِالْجَبَانِ الَّذِي يَمُوتُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ يَخَافُ الْمَوْتَ دَائِمًا. وَإِنَّمَا أَنَا حُرٌّ لَا يَخْشَى شَيْئًا، وَلَا يَخْدَعُهُ ضَوْءُ النَّهَارِ الَّذِي يَلْمَعُ بِهِ الرَّمْلُ فِي الصَّحْرَاءِ، فَيَظُنُّهُ النَّاظِرُ — مِنْ بَعِيدٍ — مَاءً، وَهُوَ سَرَابٌ خَدَّاعٌ. وَالْحُرُّ الْمِقْدَامُ لَا يَمُوتُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً حِينَ يَحْضُرُهُ أَجَلُهُ.»

ثُمَّ قَالَ:

«يَحْيَا الْجَبَانُ بِقَلْبٍ وَالِهٍ فَزِعٍ ... يَخْشَى الرَّدَى، وَيَهَابُ الْمَوْتَ مُرْتَاعَا
يَمُوتُ أَلْفًا، وَيَخْشَى — مِنْ مَهَانَتِهِ — ... شَرَّ الْحِمَامِ، وَيَبْقَى الدَّهْرَ مُلْتَاعَا
وَالْحُرُّ لَا يَرْهَبُ الْأَحْدَاثَ — إِنْ وَقَعَتْ — ... وَلَا يُرَجِّي سَرَابًا لَاحَ خَدَّاعَا
يَمُوتُ وَاحِدَةً — إِنْ جَاءَهُ أَجَلٌ — ... وَلَيْسَ يَرْهَبُ آلَامًا وَأَوْجَاعَا!»

(٩) حُلْمُ «كَلْبُرْنِيَا»

فَقَصَّتْ عَلَيْهِ «كَلْبُرْنِيَا» حُلْمًا مُفْزِعًا رَأَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنِ الْخُرُوجِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَقَالَتْ لَهُ: «لَا تَخْشَ — أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَلِيلُ — أَنْ يَتَّهِمَكَ النَّاسُ بِالْخَوْفِ؛ فَإِنَّ شَجَاعَتَكَ مَعْرُوفَةٌ ذَائِعَةٌ. وَسَيَقُولُ النَّاسُ جَمِيعًا: إِنَّ «قَيْصَرَ» قَدْ عَدَلَ عَنِ الْخُرُوجِ إِرْضَاءً لِزَوْجِهِ، وَبِرًّا بِهَا. وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ خَوْفَ زَوْجِكَ — لَا خَوْفَكَ أَنْتَ — هُوَ السِّرُّ فِي امْتِنَاعِكَ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.»



ثُمَّ رَكَعَتْ جَاثِيَةً (جَالِسَةً عَلى رُكْبَتَيْهَا) ضَارِعَةً إِلَيْهِ، مُسْتَشْفِعَةً بِهِ أَلَّا يُخَيِّبَ رَجَاءَهَا، وَأَلَّا يَتْرُكَهَا نَهْبَ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ (عُرْضَةً لَهَا، تَنْهَبُهَا وَتَفْتَرِسُهَا)، وَأَنْ يُسِرَّ إِلَى «أَنْطُنْيُوسَ» بِالذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ، لِيُخْبِرَ نُوَّابَ «رُومَةَ» أَنَّ «قَيْصَرَ» قَدِ امْتَنَعَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ، لِأَمْرٍ طَارِئٍ أَلَمَّ بِهِ. فَلَمْ يَرَ «قَيْصَرُ» بُدًّا مِنْ تَلْبِيَةِ رَجَائِهَا، وَاعْتَزَمَ الْبَقَاءَ فِي قَصْرِهِ إِرْضَاءً لَهَا.

(١٠) تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا

وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ «دِسْيَاسُ» — أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ — يَدْعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ.

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدِ اعْتَزَمْتُ الْبَقَاءَ فِي بَيْتِي — هَذَا الْيَوْمَ — فَاذْهَبْ إِلَى نُوَّابِ «رُومَةَ» وَاحْمِلْ قَرَارِي إِلَيْهِمْ.»

فَقَالَتْ «كَلْبُرْنِيَا» لِلرَّسُولِ: «نَعَمْ، وَخَبِّرْهُمْ أَنَّ «قَيْصَرَ» مَرِيضٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ.»

فَصَاحَ «قَيْصَرُ»: «كَلَّا لَا تَفْعَلْ، يَا «دِسْيَاسُ»!»

ثُمَّ الْتَفَتَ «قَيْصَرُ» إِلَى زَوْجِهِ، وَقَالَ: «أَتُرِيدِينَنِي عَلَى أَنْ أَكْذِبَ؟ أَلَا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمِينَ، يَا لِلهِ! أَيَكْذِبُ «قَيْصَرُ»؟ وَهَلْ يَكْذِبُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ؟»

ثُمَّ صَاحَ فِي صَاحِبِهِ «دِسْيَاسَ» قَائِلًا: «كَلَّا، لَسْتُ مَرِيضًا؛ فَلَا تَكْذِبْهُمُ الْقَوْلَ، يَا «دِسْيَاسَ». حَسْبُكَ أَنْ تُخْبِرَهُمْ أَنَّنِي قَدِ اعْتَزَمْتُ الْبَقَاءَ فِي الْبَيْتِ هَذَا النَّهَارِ.»

فَقَالَ لَهُ «دِسْيَاسُ»: «مَاذَا تَقُولُ، يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ؟ وَكَيْفَ يَتَلَقَّى النُّوَّابُ هَذَا الْقَرَارَ؟»

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدْ رَأَتْ زَوْجِي — فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ — حُلْمًا هَائِلًا (مُخِيفًا)، مَلَأَ قَلْبَهَا فَزَعًا وَرُعْبًا، إِذْ أَبْصَرَتْ فِي مَنَامِهَا تِمْثَالِي، وَقَدْ فَاضَ مِنْهُ مِائَةُ نَبْعٍ مِنَ الدِّمَاءِ الزَّكِيَّةِ (الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ)، ثُمَّ أَقْبَلَتْ جَمْهَرَةٌ مِنْ أَهْلِ «رُومَةَ»، فَغَمَسَتْ أَيْدِيَهَا فِي الدِّمَاءِ مُبْتَهِجَةً مَسْرُورَةً.

وَقَدْ هَالَتْ زَوْجِي تِلْكَ الرُّؤْيَا وَأَخَافَتْهَا، وَرَعَّبَتْهَا وَفَزَّعَتْهَا؛ فَأَصَرَّتْ عَلَى بَقَائِي مَعَهَا فِي الدَّارِ، طُولَ هَذَا النَّهَارِ.»

فَضَحِكَ «دِسْيَاسُ»، وَقَالَ لـ«قَيْصَرَ»: «أَيُّ فَزَعٍ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا السَّارَّةِ الْبَهِيجَةِ؟ إِنَّ لِي رَأْيًا فِي تَأْوِيلِهَا (تَفْسِيرِهَا) غَيْرَ مَا تَرَيَانِ؛ فَإِنَّ الْأَحْلَامَ تُؤَوَّلُ (تُعَبَّرُ) عَلَى عَكْسِ مَا يَرَاهُ الْحَالِمُ، وَلَسْتُ أَرَى فِي تِلْكَ الدِّمَاءِ الْمُرَاقَةِ (الْمَسْفُوحَةِ الْمَسْكُوبَةِ) — الَّتِي سَالَتْ مِنْ تِمْثَالِكَ، وَاغْتَسَلَ فِيهَا أَشْرَافُ «رُومَةَ» — إِلَّا دَلِيلًا جَدِيدًا عَلَى مَا يَبْعَثُ رُوحُكَ الْعَظِيمُ — فِي أَبْنَاءِ «رُومَةَ» — مِنَ الْقُوَّةِ، وَمَا تُكْسِبُ دِمَاؤُكَ الزَّكِيَّةُ وَطَنَكَ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْفُتُوَّةِ. وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ الْحُلْمَ الْبَهِيجَ يَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِكَ فِي قُلُوبِ الرُّومَانِ، إِذْ يُمَثِّلُ أَفْذَاذَ «رُومَةَ» (أَفْرَادَهَا الْمُمْتَازِينَ) وَعُظَمَاءَهَا، مُقْبِلِينَ عَلَيْكَ، مُعْجَبِينَ بِمَزَايَاكَ الْبَاهِرَةِ، رَاغِبِينَ فِي أَنْ يَظْفَرُوا بِأَثَرٍ مِنْ آثَارِكَ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ.»

(١١) حِيلَةُ «دِسْيَاسَ»

فَابْتَهَجَ «قَيْصَرُ» بِمَا سَمِعَ، وَسُرَّ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، وَعَدَلَ عَنِ الْبَقَاءِ فِي دَارِهِ.

فَاسْتَأْنَفَ «دِسْيَاسُ» كَلَامَهُ قَائِلًا: «لَقَدِ اعْتَزَمَ سَرَاةُ «رُومَةَ» (أَشْرَافُهَا) أَنْ يَمْنَحُوكَ التَّاجَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَرُبَّمَا أَغْضَبَهُمْ تَخَلُّفُكَ عَنِ الْحُضُورِ، وَرَأَوْا فِي ذَلِكَ إِزْرَاءً (تَحْقِيرًا) لَهُمْ، وَاسْتِهَانَةً بِهِمْ، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِمْ؛ فَعَدَلُوا عَنْ رَأْيِهِمْ فِيكَ، وَانْقَلَبَ حُبُّهُمْ إِيَّاكَ ضَغِينَةً عَلَيْكَ وَحِقْدًا.

وَلَنْ يَقْبَلَ كَائِنٌ كَانَ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخَافُ لِخَوْفِ زَوْجِهِ، وَيَنْسَى وَاجِبَهُ اتِّقَاءَ لِوَسَاوِسَ لَا خَطَرَ لَهَا. وَلَنْ يَدُورَ بِخَلَدِ إِنْسَانٍ (لَنْ يَمُرَّ بِخَاطِرِ أَحَدٍ)، أَنَّ «قَيْصَرَ» يَنْسَى شَعْبَهُ، مُسْتَسْلِمًا لِأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ (أَخْلَاطِهَا).

وَلَقَدْ كُنْتُ — لَوْلَا حُبِّيكَ (مَحَبَّتِي إِيَّاكَ) وَوَفَائِي لَكَ — مُقِرَّكَ عَلَى رَأْيِكَ؛ وَلَكِنَّنِي أَخْشَى — إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ — أَنْ أَكُونَ مِنَ الْأَثَمَةِ الْغَادِرِينَ!»

فَخَجِلَ «قَيْصَرُ» مِمَّا سَمِعَ، وَقَرَّرَ الذَّهَابَ — مِنْ فَوْرِهِ — إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ. وَارْتَدَى عَبَاءَتَهُ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ؛ فَرَأَى بَقِيَّةَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ قَادِمِينَ عَلَى دَارِهِ — وَعَلَى رَأْسِهِمْ «بُرُوتَسُ» — يَدْعُونَهُ لِمُرَافَقَتِهِمْ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.

ثُمَّ جَاءَ صَدِيقُهُ الْوَفِيُّ «أَنْطُنْيُوسُ»، وَخَرَجُوا جَمِيعًا مَعَ «قَيْصَرَ»، وَقَدْ سُرِّيَ عَنْهُ، وَزَالَتْ وَحْشَتُهُ، وَذَهَبَ مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ مِنَ الْمَخَاوِفِ.

(١٢) جَزَعُ «پُرْشَا»

أَمَّا «پُرْشَا» — زَوْجُ «بُرُوتَسَ» — فَقَدِ اشْتَدَّ جَزَعُهَا عَلَى زَوْجِهَا. وَقَدْ أَدْرَكَتْ — مِمَّا رَأَتْهُ مِنَ الِاضْطِرَابِ عَلَى أَسَارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) — أَنَّهُ قَادِمٌ عَلَى أَمْرٍ جَلَلٍ (عَظِيمٍ)، وَخَشِيَتْ أَنْ يُصِيبَهُ سُوءٌ. فَلَمَّا بَلَغَتِ السَّاعَةُ التَّاسِعَةَ، أَمَرَتْ خَادِمَهَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ لِيُطَمْئِنَهَا.

وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتًا خَافِتًا؛ فَأَرْهَفَتْ أُذُنَيْهَا، حَتَّى دَانَاهَا الصَّوْتُ؛ فَرَأَتْ عَرَّافًا يَقْتَرِبُ، فَنَادَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا. فَسَأَلَتْهُ عَمَّا يَخْبَؤُهُ الْقَدَرُ لِزَوْجِهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ.



فَقَالَ لَهَا الْعَرَّافُ: «أَرَى أَنَّ زَوْجَكِ يَهُمُّ بِعَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخْشَى أَنْ يَلْقَى — مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ — مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ.»

فَقَالَتْ لَهُ «بُرْشَا» مَحْزُونَةً خَائِفَةً: «هَلْ خَرَجَ «قَيْصَرُ» مِنْ دَارِهِ؟»

فَأَجَابَهَا الْعَرَّافُ: «لَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ خُرُوجِهِ، وَسَأَذْهَبُ إِلَيْهِ؛ لِأُحَذِّرَهُ عَاقِبَةَ هَذَا الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ.»

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

(١) النَّذِيرُ الْأَوَّلُ

أَمَّا «قَيْصَرُ» فَقَدْ سَارَ مَعَ رِفَاقِهِ الْغَادِرِينَ — وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تَخْبَؤُهُ لَهُ الْأَقْدَارُ — حَتَّى بَلَغُوا دَارَ النِّيَابَةِ.

وَمَا سَارَ «قَيْصَرُ» خُطُوَاتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى دَانَاهُ فَيْلَسُوفٌ رُومِيٌّ (يُونَانِيٌّ). وَكَانَ هَذَا الْفَيْلَسُوفُ الرُّومِيُّ يُحِبُّ «قَيْصَرَ» وَيُخْلِصُ لَهُ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَرَقَةً يُحَذِّرُهُ فِيهَا غَدْرَ أَصْحَابِهِ الْمُحِيطِينَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «أَرْجِئْ هَذِهِ الْوَرَقَةَ إِلَى مَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ.» فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ النَّاصِحُ: «بِرَبِّكَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرَ — عَجِّلْ بِقِرَاءَتِهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا أَمْرًا خَطِيرًا يَعْنِيكَ، وَيَهُمُّكَ أَنْ تَتَعَرَّفَهُ.» فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «مَا دَامَتِ الْوَرَقَةُ لَا تَعْنِي سِوَايَ، وَلَا تَهُمُّ غَيْرِي، فَإِنِّي مُرْجِئٌ رُؤْيَتَهَا، وَمُؤَخِّرٌ قِرَاءَتَهَا حَتَّى أَنْتَهِيَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدَّوْلَةِ وَفُرُوضِهَا.»

فَلَمَّا رَأَى «كَسْيَاسُ» الدَّاهِيَةُ الذَّكِيُّ إِلْحَاحَ ذَلِكَ النَّاصِحِ، خَشِيَ أَنْ تَسُوءَ الْعَاقِبَةُ، وَتَوَجَّسَ مِنْهُ شَرًّا؛ فَقَالَ لَهُ غَاضِبًا: «حَذَارِ أَنْ تُلْحِفَ (إِيَّاكَ أَنْ تُلِحَّ) عَلَى الْقَيْصَرِ الْعَظِيمِ! وَحَسْبُكَ أَنَّهُ قَدْ وَعَدَكَ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِكَ.»

وَانْتَهَزَ «كَسْيَاسُ» الْمَاهِرُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، فَأَخَذَ الْوَرَقَةَ، وَاسْتَبْدَلَ بِهَا أُخْرَى؛ لِيَأْمَنَ كُلَّ شَرٍّ.

(٢) النَّذِيرُ الثَّانِي

وَسَارَ «قَيْصَرُ» خُطُواتٍ قَلِيلَةً أُخْرَى، فَلَمَحَ الْعَرَّافَ الَّذِي حَذَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ — مِنْ قَبْلُ — فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» بَاسِمًا: «أَلَيْسَ هَذَا الْيَوْمُ مُنْتَصَفَ «مَارِسَ» الَّذِي حَذَّرْتَنِي إِيَّاهُ؟»

فَقَالَ لَهُ الْعَرَّافُ: «إِنَّ الْيَوْمَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرَ — لَمَّا يَنْتَهِ، وَلَا زِلْتُ أُوصِيكَ بِالْيَقَظَةِ وَالْحَذَرِ.»

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» هَازِئًا: «مَا أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَحْذِيرِكَ؛ فَإِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَائِنًا كَانَ.»

(٣) ضَرَاعَةُ الْمُؤْتَمِرِينَ

ثُمَّ تَبَوَّأَ «قَيْصَرُ» — سَيِّدُ الدُّنْيَا — مَجْلِسَهُ، تَحْتَ تِمْثَالِ «بُمْبِي»، وَأَحَاطَ بِهِ شُيُوخُ «رُومَةَ».



وَتَأَهَّبَ الْمُؤْتَمِرُونَ بِهِ، وَاسْتَعَدُّوا لِإِنْفَاذِ جَرِيمَتِهِمْ.

فَاقْتَرَبَ أَحَدُهُمْ مِنْ «أَنْطُنْيُوسَ» — صَدِيقِ الْقَيْصَرِ الْحَمِيمِ — وَشَغَلَهُ بِشَتَّى الْحَدِيثِ، وَاسْتَدْرَجَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ مَجْلِسِ «قَيْصَرَ»؛ لِيُمَكِّنَ رِفَاقَهُ مِنِ اغْتِيَالِ سَيِّدِ

«رُومَةَ» وَزَعِيمِهَا الْأَوْحَدِ. وَتَقَدَّمَ «مَتِيلُوسُ» مُتَوَجِّهًا إِلَى «قَيْصَرَ»؛ فَرَكَعَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ضَارِعًا، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ أَخِيهِ، وَيُرْجِعَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَنْفَاهُ السَّحِيقِ (الْبَعِيدِ).

فَغَضِبَ عَلَيْهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الْمَهَانَةَ وَالْمَذَلَّةَ وَالضَّرَاعَةَ لَا تَلِيقُ بِالرِّجَالِ، وَلَيْسَ «قَيْصَرُ» بِنَاقِضٍ حُكْمَهُ، وَلَا رَاجِعٌ عَنْهُ، وَلَا مُتَرَدِّدٌ فِي أَمْرِهِ.»

فَانْضَمَّ إِلَيْهِ بَقِيَّةُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِـ«قَيْصَرَ»، وَرَكَعُوا — وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ — يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ بِأَخِيهِ، وَالْعَفْوِ عَنْ زَلَّتِهِ (التَّجَاوُزِ عَنْ خَطِئِهِ)؛ فَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا.

(٤) الْأُغْنِيَةُ الْأَخِيرَةُ

وَاقْتَرَبَ «بُرُوتَسُ» مِنْ صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» مُسْتَعْطِفًا، رَاجِيًا أَنْ يَقْبَلَ الْتِمَاسَ صَاحِبِهِ، وَيُرْجِعَ إِلَيْهِ أَخَاهُ مِنْ مَنْفَاهُ.

فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ مِثْلُ «قَيْصَرَ» مَنْ يَلِينُ لِلرَّجَاءِ، أَوْ يَحُولُ عَنْ عَزْمِهِ. وَمَا كَانَ «قَيْصَرُ» لِيَنْقُضَ الْيَوْمَ مَا أَبْرَمَهُ بِالْأَمْسِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «قَيْصَرُ» كَلَامَهُ، مَزْهُوًّا تَائِهًا، وَقَالَ: «إِنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ تَظْهَرُ مُؤْتَلِقَاتٍ (تَبْدُو مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً)، وَلَكِنْ بَيْنَهَا نَجْمًا قُطْبِيًّا يَهْدِي الْحَائِرِينَ، وَيَثْبُتُ ثَبَاتَ الرَّوَاسِي (الْجِبَالِ). كَذَلِكَ الرِّجَالُ: يَظْهَرُونَ وَقَدْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ نَزَعَاتُهُمْ وَمَذَاهِبُهُمْ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» — فِي هِمَّتِهِ الشَّمَّاءِ (الْعَالِيَةِ) — كَذَلِكَ النَّجْمُ الْقُطْبِيُّ فِي اللَّيْلَةِ الدَّيْجَاءِ (الشَّدِيدَةِ الظُّلْمَةِ)، فَلَا كِفَاءَ لَهُ (لَا نَظِيرَ). وَإِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» لَأَلْمَعِيٌّ (قَوِيُّ الذَّكَاءِ، صَادِقُ الْفِرَاسَةِ وَالظَّنِّ)، وَإِنَّهُ لَذُو مَضَاءٍ (صَاحِبُ قُوَّةٍ وَنَفَاذٍ). فَإِنْ أَقَرَّ أَمْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ صُرُوفُ الْقَضَاءِ (حَوَادِثُ الْأَيَّامِ) أَنْ تَرُدَّهُ عَنْهُ، وَتَقِفَهُ دُونَهُ.»

ثُمَّ قَالَ:

«هَذِي نُجُومُ السَّمَاءِ ... مَنْثُورَةٌ فِي الْفَضَاءِ
يَشِعُّ مِنْهَا ضِيَاءٌ ... فِي سَائِرِ الْأَرْجَاءِ
تَدُورُ مُؤْتَلِقَاتٍ، ... تَجْرِي لِغَيْرِ انْتِهَاءِ
وَثَمَّ — فِي الْقُطْبِ — نَجْمٌ ... يَبْدُو لِعَيْنِ الرَّائِي
بِالنُّورِ يَهْدِي الْحَيَارَى ... فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ

ثَـبْـتٌ ثَـبَـاتَ الـرَّوَاسِـي بَـاقٍ بَـقَـاءَ الـسَّـمَـاءِ
وَفِــي الــرِّجَــالِ أُلُــوفٌ مُــفَــرَّقُــو الْأَهْــوَاءِ
مِـثْـلُ الـنُّـجُـومِ تَـرَاءَتْ مَــوْفُــورَةَ الْأَضْــوَاءِ
لَـكِـنَّ «قَـيْـصَـرَ رُومَـا» ذَا الْـهِـمَّـةِ الـشَّـمَّـاءِ
يَسْمُو عَلَيْهِمْ جَمِيعًا فِـي رِفْـعَـةٍ وَاعْـتِـلَاءِ
كَسَاطِعِ الْقُطْبِ يَهْدِي فِـي اللَّـيْـلَـةِ الدَّيْـجَـاءِ
يَـجِـلُّ عَـنْ كُـلِّ شِـبْـهٍ فَـمَـا لَـهُ مِـنْ كِـفَـاءِ!
لَا يَـنْـقُـضُ الـنَّـاسُ رَأْيًـا لِـسَـيِّـدِ الْـعُـظَـمَـاءِ
الْأَلْـمَـعِـي الْـمُـفَـدَّى الْأَوْحَــدِيِّ الــذَّكَــاءِ
وَمَـنْ كـ «قَـيْـصَـرِ رُومَـا» فِــي عَـزْمَـةٍ وَمَـضَـاءِ
إِنْ رَاحَ يُــبْــرِمُ أَمْــرًا أَعْـيَـا صُـرُوفَ الْـقَـضَـاءِ!»

(٥) مَصْرَعُ «قَيْصَرَ»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ آخِرَةَ حَيَاةِ «قَيْصَرَ»، وَخَاتِمَةَ صَحِيفَتِهِ فِي الْوُجُودِ؛ فَمَا أَتَمَّهَا حَتَّى صَاحَ «كَسْكَا» ثَائِرًا: «تَكَلَّمِي الْآنَ، يَا يَدِي …!»

ثُمَّ طَعَنَهُ بِخِنْجَرِهِ طَعْنَةً نَجْلَاءَ (وَاسِعَةً)، وَتَابَعَهُ رِفَاقُهُ بِخَنَاجِرِهِمْ. ثُمَّ سَدَّدَ «بُرُوتَسُ» طَعْنَةً إِلَى صَدِيقِهِ، فَذَهِلَ «قَيْصَرُ» مِمَّا رَأَى، وَقَالَ لـ«بُرُوتَسَ» مَدْهُوشًا: «حَتَّى أَنْتَ يَا «بُرُوتَسُ»! الْآنَ يَمُوتُ «قَيْصَرُ»!»

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُ «قَيْصَرَ»: زَعِيمُ «رُومَةَ» وَسَيِّدُهَا!

(٦) شَنَاعَةُ الْهَوْلِ

ذُعِرَ شُيُوخُ «رُومَةَ» وَسَرَاتُهَا (أَعْيَانُهَا)، وَسَوَادُ أَهْلِيهَا (عَامَّةُ شَعْبِهَا) وَجُمْهُورُ سَاكِنِيهَا، وَاشْتَدَّ جَزَعُهُمْ لِمَصْرَعِ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَصَاحَ الْقَتَلَةُ هَاتِفِينَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ، لِيُخَفِّفُوا وَقْعَ الْمُصَابِ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ.



وَاشْتَدَّ هِيَاجُ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَوْلَى الذُّعْرُ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ جَمِيعًا، حَتَّى سَلَبَهُمُ الْخَوْفُ عُقُولَهُمْ؛ فَجَرَوْا مَشْدُوهِينَ ذَاهِلِينَ، وَصَاحُوا مِنْ فَرْطِ الْأَسَى وَالْخَوْفِ، فَمَلَئُوا الْفَضَاءَ بِصَيْحَاتِهِمُ الْمُفَزِّعَةِ.

وَلَمْ يَجِدِ الْمُؤْتَمِرُونَ — أَمَامَهُمْ — وَقْتًا يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ «بُرُوتَسُ» أَنْ يُشْهِرُوا سُيُوفَهُمْ، وَيَغْمِسُوا سَوَاعِدَهُمْ فِي دِمَاءِ «قَيْصَرَ»، هَاتِفِينَ بِالسَّلَامِ وَالْحُرِّيَّةِ، مُتَغَنِّينَ بِمَجْدِ «رُومَةَ»، وَخَلَاصِهَا مِنْ نَيْرِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِبْدَادِ.

(٧) مَقْدَمُ «أَنْطُنْيُوسَ»

وَعَلِمَ «أَنْطُنْيُوسُ» بِمَصْرَعِ «قَيْصَرَ». فَأَقْبَلَ عَلَى دَارِ النِّيَابَةِ مُسْرِعًا، وَتَظَاهَرَ أَمَامَ «بُرُوتَسَ» وَأَصْحَابِهِ بِقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ بِمَا حَدَثَ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ أَنَّهُ مُجَدِّدٌ عُهُودَهُ وَمَوَاثِيقَهُ مَعَهُمْ، إِذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُقْنِعُوهُ بِصَوَابِ مَا فَعَلُوهُ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَكَ عَلَيْنَا أَنْ نَشْرَحَ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَفَزَتْنَا إِلَى الْفَتْكِ بِـ«قَيْصَرَ». وَنَحْنُ وَاثِقُونَ أَنَّكَ سَتَرَى رَأْيَنَا؛ لِأَنَّ قُوَّةَ بُرْهَانِنَا، وَصِدْقَ حُجَّتِنَا: كَفِيلَانِ بِإِقْنَاعِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَى «قَيْصَرَ» وَلَوْ كَانَ ابْنَهُ.»

وَنَظَرَ «أَنْطُنْيُوسُ»، فَرَأَى جُثَّةَ «قَيْصَرَ» هَامِدَةً مُضَرَّجَةً (مُلَطَّخَةً) بِالدِّمَاءِ؛ فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ يَحْزَنَ عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ، وَيُذْرِفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَ خَطَرَ الْمَوْقِفِ؛ فَاسْتَعْصَمَ بِالْحَزْمِ وَالْجَلَدِ، وَالْتَفَتَ إِلَى «بُرُوتَسَ» وَرِفَاقِهِ، وَقَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ حَاقِدِينَ عَلَيَّ؛ فَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَتَرْوُوا — مِنْ دَمِي — سُيُوفَكُمُ الَّتِي فَتَكَتْ بِـ«قَيْصَرَ»!»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَسْنَا نَشُكُّ فِي إِخْلَاصِكَ لَنَا، يَا «أَنْطُنْيُوسُ». وَمَا نَحْنُ بِسَفَّاحِينَ، وَلَا مُتَعَطِّشِينَ إِلَى الدِّمَاءِ. وَلَكِنَّنَا قَتَلْنَا «قَيْصَرَ» فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ، مُنْتَصِرِينَ — بِذَلِكَ — لِلْحُرِّيَّةِ، وَلَمْ نَقْتُلْهُ لِبُغْضٍ كَامِنٍ فِي نُفُوسِنَا، أَوْ حِقْدٍ مُتَأَصِّلٍ فِي قُلُوبِنَا.»

(٨) خُطْبَةُ «بُرُوتَسَ»

فَقَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «إِنِّي مُعَاهِدُكُمْ عَلَى الْوَفَاءِ؛ فَهَلْ تَأْذَنُونَ لِي أَنْ أَبْكِيَهُ، وَأَرْثِيَهُ، وَأُعَدِّدَ مَنَاقِبَهُ (أَذْكُرَ مَحَاسِنَهُ)؟ فَهُوَ صَدِيقٌ لَكُمْ وَلِي عَلَى السَّوَاءِ.»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ، بَعْدَ أَنْ أُهَدِّئَ الْجُمْهُورَ الثَّائِرَ الصَّاخِبَ، وَأُسَكِّنَ مِنْ رُوعِهِ (قَلْبِهِ).»

وَانْتَحَى «كَسْيَاسُ» بِصَاحِبِهِ «بُرُوتَسَ»، وَحَاوَلَ أَنْ يُثْنِيَ مِنْ عَزْمِهِ عَلَى مُسَالَمَةِ «أَنْطُنْيُوسَ»، وَيُحَذِّرَهُ الِانْخِدَاعَ بِمَا زَوَّرَهُ (زَيَّنَهُ) مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ (لِينِ الْكَلَامِ)؛ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُ «بُرُوتَسُ» قَوْلًا، وَأَثْبَتَ لَهُ أَنَّ «أَنْطُنْيُوسَ» لَنْ يُسِيءَ إِلَيْهِمْ فِي خِطَابِهِ. وَخَتَمَ

«بُرُوتَسُ» حِوَارَهُ قَائِلًا: «لَنْ يَجْرُؤَ «أَنْطُنْيُوسُ» عَلَى اتِّهَامِنا، وَلَنْ يَتَعَدَّى خِطَابُهُ رِثَاءَ «قَيْصَرَ»، وَتَعْدَادَ مَنَاقِبِهِ (التَّمَدُّحِ بِخِلَالِهِ)، وَالثَّنَاءِ عَلَى أَخْلَاقِهِ.»

ثُمَّ افْتَرَقَ «بُرُوتَسُ» وَ«كَسْيَاسُ»، لِيَخْطُبَا سَوَادَ الْجُمْهُورِ (عَامَّتَهُ)، وَيُهَدِّئَا خَوَاطِرَهُ الثَّائِرَةَ.

وَاعْتَلَى «بُرُوتَسُ» مِنَصَّةَ الْخَطَابَةِ، فَصَاحَ فِي الْحَاضِرِينَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ (عَالٍ)، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

«لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» — كَمَا عَلِمْتُمْ — رَجُلًا عَظِيمًا، كَبِيرَ الْقَلْبِ، مَوْفُورَ الْحَظِّ، وَلَمْ يُحِبَّهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْبَبْتُهُ أَنَا. وَلَكِنَّ طَمَعَ «قَيْصَرَ» هُوَ الَّذِي أَحْفَظَنِي عَلَيْهِ وَأَغْضَبَنِي، وَبَدَّلَ حُبِّيهِ (مَحَبَّتِي لَهُ) كَرَاهِيَةً وَمَقْتًا. لَقَدْ فَتَكْنَا بِهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَمَّاعًا. لَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَعْبِدَكُمْ — وَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ — فَثُرْنَا — فِي وَجْهِهِ — انْتِصَارًا لِحُرِّيَّتِكُمْ، وَقَتَلْنَاهُ لِنُنْقِذَكُمْ مِنْ نَيْرِ الطُّغْيَانِ، وَنُخَلِّصَكُمْ مِنْ بَرَاثِنِ الظُّلْمِ (أَصَابِعِهِ). فَهَلْ أَثِمْنَا فِيمَا فَعَلْنَا؟ إِنْ كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ بِهِ الْعُقُوقُ لِوَطَنِهِ، وَالِاسْتِهَانَةَ بِحُرِّيَّتِهِ، حَدَّ السُّخْطِ عَلَى مُحَارَبَةِ الِاسْتِعْبَادِ وَالذُّلِّ؛ فَلْيُكَاشِفْنَا بِرَأْيِهِ، وَلْيَتَكَلَّمْ أَمَامَنَا، وَلْيَتَّهِمْنَا بِأَنَّنَا قَدْ أَسَأْنَا فِيمَا فَعَلْنَا.»

فَصَفَّقَ الْجُمْهُورُ لِلْخَطِيبِ الْبَارِعِ الْمُفَوَّهِ: «بُرُوتَسَ»، وَأُعْجِبُوا بِفَصَاحَتِهِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ، وَتَعَالَى هُتَافُ الْحَاضِرِينَ بِحَيَاتِهِ.

(٩) خُطْبَةُ «أَنْطُنْيُوسَ»

وَظَهَرَ «أَنْطُنْيُوسُ» — حِينَئِذٍ — وَهُوَ يَحْمِلُ جُثَّةَ «قَيْصَرَ».

فَأَشَارَ «بُرُوتَسُ» إِلَى الْحَاضِرِينَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ هُتَافِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «الْبَثُوا (ابْقَوْا) فِي أَمَاكِنِكُمْ، لِتَسْمَعُوا رِثَاءَ «أَنْطُنْيُوسَ» لِصاحبِه، فقَدْ أَذِنَّا لهُ في ذلكَ.»

ثمَّ خَرَجَ «بُرُوتَسُ»، وَتَرَكَ خَصْمَهُ «أَنْطُنْيُوسَ» يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ سَيُلْهِبُ نَارَ ثَوْرَتِهِ، وَيُذْكِي ضِرَامَ حِقْدِهِ.



وَمَا ارْتَقَى «أَنْطُنْيُوسُ» الْمِنْبَرَ حَتَّى قَالَ:

«أَصْدِقَائِي وَأَصْحَابِي أَبْنَاءَ «رُومَةَ»: أَعِيرُونِي أَسْمَاعَكُمْ؛ فَقَدْ جِئْتُ لِأَحْتَفِلَ بِدَفْنِ «قَيْصَرَ»، وَلَمْ أَجِئْ لِأَمْتَدِحَ فِعَالَهُ، وَأُثْنِيَ عَلَى مَزَايَاهُ؛ فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ — وَحْدَهُ — أَحْسَنُ ثَنَاءٍ يُخَلِّدُهُ، وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ، إِنْ كَانَ صَالِحًا. لَقَدْ حَدَّثَكُمْ «بُرُوتَسُ» أَنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَّاعًا، وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. فَإِذَا صَحَّ مَا يَقُولُ «بُرُوتَسُ»؛ فَقَدْ لَقِيَ «قَيْصَرُ» جَزَاءَهُ الْعَادِلَ، وَاسْتَحَقَّ الْمَوْتَ، بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنْ شُرُورٍ وَآثَامٍ.

لَقَدْ أَذِنَ لِي «بُرُوتَسُ» فِي أَنْ أَرْثِيَ «قَيْصَرَ»، وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. وَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» نِعْمَ الصَّدِيقُ الْوَفِيُّ الْعَادِلُ الرَّحِيمُ، وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» رَجُلٌ طَمَّاعٌ.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ!

لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» يُغْدِقُ عَلَيْكُمُ الْمَالَ (يُفِيضُهُ بِلَا حِسَابٍ)، وَيَبْكِي رَحْمَةً بِالْفَقِيرِ، وَيُؤَسِّي الضَّعِيفَ. فَهَلْ تَعُدُّونَ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ طَمَّاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَّاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَقَدْ قَدَّمْتُ التَّاجَ لـ«قَيْصَرَ» — مَرَّاتٍ ثَلَاثًا — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرُ»، وَلَمْ يَقْبَلْهُ. فَهَلْ كَانَ «قَيْصَرُ» طَمَّاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسُ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَّاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَسْتُ أُكَذِّبُ «بُرُوتَسَ» فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنَّنِي أَكْتَفِي بِتَقْرِيرِ مَا أَعْرِفُهُ — وَتَعْرِفُونَهُ — عَنْ «قَيْصَرَ»:

لَقَدْ أَحْبَبْتُمْ «قَيْصَرَ» — كَمَا أَحَبَّكُمْ — فَلِمَاذَا أَحْبَبْتُمُوهُ، وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ، وَهَتَفْتُمْ بِاسْمِهِ؟ وَكَيْفَ لَا تَبْكُونَ الْيَوْمَ مَصْرَعَ مَنْ أَحْبَبْتُمُوهُ وَأَحَبَّكُمْ؟ هَا هِيَ ذِي وَصِيَّةُ «قَيْصَرَ»، الَّتِي أَوْدَعَهَا حُبَّهُ وَإِخْلَاصَهُ لَكُمْ؛ فَآهٍ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا تَحْوِيهِ! إِذَنْ لَمَزَّقَ الْأَسَى قُلُوبَكُمْ، وَقَطَّعَ الْحُزْنُ أَفْئِدَتَكُمْ ...!»

(١٠) وَصِيَّةُ «قَيْصَرَ»

وَمَا وَصَلَ «أَنْطُنْيُوسُ» إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى تَهَدَّجَ صَوْتُهُ (ضَعُفَ وَارْتَعَشَ)، وَبَكَى؛ فَاسْتَبْكَى سَامِعِيهِ، وَصَاحُوا جَمِيعًا، يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَتْلُوَ عَلَيْهِمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ».

فَقَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا، فَإِنِّي أُشْفِقُ (أَخَافُ) عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَقَطَّعَ قُلُوبُكُمْ حُزْنًا، وَتَذُوبَ أَكْبَادُكُمْ أَسًى، مَتَى سَمِعْتُمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»

فَصَاحَ بِهِ الْحَاضِرُونَ هَاتِفِينَ: «الْوَصِيَّةَ! الْوَصِيَّةَ! لَا بُدَّ أَنْ تُسْمِعَنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»

فَقَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «إِذَا شِئْتُمْ أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ» فَتَعَالَوْا — أَيُّهَا الْإِخْوَانُ — وَالْتَفُّوا حَوْلَ جُثَّةِ عَظِيمِنَا الرَّاحِلِ، لِأُرِيَكُمْ مَاذَا فَعَلَ أَصْحَابُ «قَيْصَرَ»: صَاحِبِ الْوَصِيَّةِ.»

ثُمَّ تَرَكَ «أَنْطُنْيُوسُ» الْمِنَصَّةَ، وَرَفَعَ عَبَاءَةَ «قَيْصَرَ» الَّتِي ارْتَدَاهَا يَوْمَ انْتِصَارِهِ الْمَجِيدِ، ثُمَّ قَالَ: «لَيْسَ لِي مِثْلُ فَصَاحَةِ «بُرُوتَسَ» وَلَبَاقَتِهِ، وَظَرْفِهِ وَفِطْنَتِهِ. وَلَكِنْ حَسْبِي أَنْ أُنْهِيَ إِلَيْكُمْ فَصْلَ الْخِطَابِ (الْقَوْلَ الْحَاسِمَ)، حِينَ أُرِيكُمْ جِرَاحَ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، الَّذِي أَخْلَصَ لَكُمْ الْإِخْلَاصَ كُلَّهُ، وَمَحَضَكُمْ (أَصْفَى لَكُمْ) الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ. فَإِنَّ هَذِهِ الْجِرَاحَ وَحْدَهَا لَتَنْطِقُ بِأَبْلَغِ لِسَانٍ، فَتُثِيرُ شَكْوَاهَا صُمَّ الْجَمَادِ، وَتُحَرِّكُ أَحْجَارَ «رُومَةَ» جَمِيعًا.

انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْجُرْحِ الدَّامِي، تَرَوْا طَعْنَةَ «كَسْكَا»، وَتَرَوْا إِلَى جَانِبِهَا طَعْنَةَ «بُرُوتَس»: الصَّدِيقِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِ «قَيْصَرَ»، وَالصَّفِيِّ الْوَفِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ «قَيْصَرُ»! وَهَا هِيَ ذِي طَعْنَتُهُ الطَّعَنَاتِ الَّتِي مَزَّقَتْ قَلْبَهُ الشُّجَاعَ!»

وَمَا بَلَغَ «أَنْطُنْيُوسُ» هَذَا الْحَدَّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى ثَارَ الشَّعْبُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْغَضَبُ، وَغَمَرَتْهُ مَوْجَةٌ مِنَ الْحَنَقِ وَالْغَيْظِ. فَصَاحَ الْجَمْعُ مُهْتَاجِينَ: «الْوَيْلُ! لـ«بُرُوتَس» وَرِفَاقِهِ. أَمَا وَاللهِ لَنُزَلْزِلَنَّ دَارَهُ، وَلَنُحَرِّقَنَّ أَصْحَابَهُ الْغَادِرِينَ!»

فَقَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «أَنَاةً وَمَهْلًا — يَا بَنِي وَطَنِي — وَصَبْرًا، فَإِنَّكُمْ لَمَّا تَسْمَعُوا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»

فَصَاحُوا: «الْوَصِيَّةَ! الْوَصِيَّةَ! صَدَقْتَ — أَيُّهَا النَّبِيلُ — فَاتْلُ عَلَيْنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»

فَقَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «هَاكُمُ اقْرَأُوا وَصِيَّتَهُ، وَعَلَيْهَا خَاتَمُهُ، وَانْظُرُوا مَا تَحْوِيهِ. اسْمَعُوا مَا كَتَبَهُ لَكُمْ. لَقَدْ وَهَبَ لَكُمْ — فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ — كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالٍ، وَأَوْرَثَكُمْ فِيهَا كُلَّ مَا فِي حَوْزَتِهِ مِنْ حَدَائِقَ وَمُتَنَزَّهَاتٍ! هَذَا هُوَ «قَيْصَرُ» الَّذِي غَدَرُوا بِهِ؛ فَهَلْ يَجُودُ الزَّمَنُ بِمِثْلِهِ؟»

فَصَاحُوا مَحْزُونِينَ: «كَلَّا، كَلَّا! فَإِنَّ الدَّهْرَ بِمِثْلِهِ لَضَنِينٌ (بَخِيلٌ)!»

(١١) مَقْدَمُ «أُكْتَفْيُوسَ»

وَهَكَذَا أَفْلَحَ «أَنْطُنْيُوسُ» فِي إِثَارَةِ الْجُمْهُورِ، وَإِلْهَابِ نَارِ الثَّوْرَةِ؛ لِيُصْلِيَ (لِيُحْرِقَ) بِهَا أَعْدَاءَ «قَيْصَرَ». فَانْدَفَعَ سَوَادُ الرُّومَانِيِّينَ (عَامَّتُهُمْ)؛ لِيَفْتِكُوا بِقَاتِلِي «قَيْصَرَ» وَأَنْصَارِهِمْ.

وَثَمَّةَ ارْتَاحَ «أَنْطُنْيُوسُ»، وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ (وَالصُّعَدَاءُ: التَّنَفُّسُ الطَّوِيلُ مِنْ هَمٍّ أَوْ تَعَبٍ)، وَقَدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، بَعْد أَنْ أَدْرَكَ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَأْلِيبِ الْجُمْهُورِ عَلَى خُصُومِهِ وَأَعْدَائِهِ.

وَسُرْعَانَ مَا وَلَّى «بُرُوتَس» وَ«كَسْيَاسُ» فِرَارًا مِنَ الثَّائِرِينَ، وَخَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ هَائِمَيْنِ عَلَى وَجْهَيْهِمَا (سَائِرَيْنِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، لَا يَعْلَمَانِ لَهُمَا وِجْهَةً.)

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، عَلِمَ «أَنْطُنْيُوسُ» بِمَقْدَمِ صَدِيقِهِ «أُكْتَفْيُوسُ» إِلَى «رُومَةَ»؛ فَأَيْقَنَ — حِينَئِذٍ — بِالِانْتِصَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَقْدَمِ «أُكْتَفْيُوسَ» فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْحَرِجَةِ (الْخَطِيرَةِ)؛ لِتَتِمَّ عَلَى يَدَيْهِمَا هَزِيمَةُ الْقَتَلَةِ الْغَادِرِينَ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

(١) لِقَاءُ الصَّدِيقَيْنِ

لَمْ يُضِعْ «أَنْطُنْيُوسُ» شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ سُدًى (بِلَا فَائِدَةٍ)، بَلْ أَسْرَعَ إِلَى لِقَاءِ صَدِيقِهِ «أُكْتَفْيُوسَ»، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا حَدَثَ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِهِ عَنْ «رُومَةَ». وَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيَاهُمَا عَلَى أَنْ يُسْرِعَا إِلَى حَشْدِ جَيْشٍ عَظِيمٍ — مِنْ أَنْصَارِهِمَا — لِمُهَاجَمَةِ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ» اللَّذَيْنِ نَشِطَا إِلَى النِّضَالِ، وَأَسْرَعَا إِلَى الْقِتَالِ، وَجَمَعَا حَوْلَهُمَا جَيْشًا كَبِيرًا، وَلَمْ يَأْلُوَا جُهْدًا (لَمْ يُقَصِّرَا) فِي جَمْعِ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ — مِنَ الْجُنُودِ — لِغَزْوِ أَصْحَابِ «قَيْصَرَ»، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالِانْتِصَارِ لِعَظِيمِ «رُومَةَ» الرَّاحِلِ.

فَأَقَرَّهُ «أُكْتَفْيُوسُ» عَلَى رَأْيِهِ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ، وَجَمَعَ جَيْشَهُ، وَسَارُوا مُجِدِّينَ؛ لِيَنْكِلُوا بِالْغَادِرِينَ، وَيَثْأَرُوا لـ «قَيْصَرَ» (يَنْتَقِمُوا لَهُ) مِنْ قَاتِلِيهِ.

(٢) بَيْنَ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ»

وَنَشِبَ خِلَافٌ (ثَارَ وَاشْتَبَكَ) بَيْنَ «كَسْيَاسَ» وَ«بُرُوتَسَ»، فَكَادَتْ تَذْهَبُ رِيحُهُمَا (كَادَا يَفْنَيَانِ)، وَأَوْشَكَ الْخِلَافُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَصِيبِ (الشَّدِيدِ). وَكَانَ مَبْعَثُ هَذَا الْخِلَافِ أَنَّ «بُرُوتَسَ» قَدْ أَصَرَّ عَلَى مُعَاقَبَةِ أَحَدِ أَنْصَارِ «كَسْيَاسَ» لِاعْوِجَاجِ سَيْرِهِ، وَقَبُولِهِ الرِّشْوَةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ «كَسْيَاسُ» مُتَشَفِّعًا فِيهِ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ «بُرُوتَسُ» شَفَاعَتَهُ. فَأَسَرَّهَا

«كَسْيَاسُ» فِي نَفْسِهِ، وَقَبَضَ يَدَهُ عَنْ إِمْدَادِ «بُرُوتَسَ» بِالْمَالِ. فَلَمَّا الْتَقَى الصَّدِيقَانِ، بَدَأَ «كَسْيَاسُ» صَدِيقَهُ «بُرُوتَسَ» بِالْعِتَابِ لِرَفْضِ شَفَاعَتِهِ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تُبْعِدَ نَفْسَكَ عَنْ مَوَاطِنِ الرَّيْبِ (أَمَاكِنِ التُّهَمِ)، فَلَا تُعَرِّضْهَا لِلشَّفَاعَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَثِيمِ الْمُرْتَشِي!»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَتَغَاضَى (تَتَسَمَّحَ) عَنِ الْمُحَاسَبَةِ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَالْعِقَابِ عَلَى الْهَنَوَاتِ (الذُّنُوبِ الْيَسِيرَةِ) فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْعَصِيبَةِ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّ مِثْلِي خَلِيقٌ بِأَنْ يَزِنَ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (الْمِيزَانِ الْعَادِلِ)، وَأَنْ يُعَاقِبَ الْمُسِيءَ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَيَجْزِيَ الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ. وَلَكِنَّكَ تَتَغَاضَى عَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الزَّلَّاتِ (السَّقَطَاتِ وَالْغَلَطَاتِ) لِأَنَّكَ مُلَوَّثُ الْيَدِ، مُتَّهَمٌ بِإِسْنَادِ الْمَنَاصِبِ الرَّفِيعَةِ إِلَى غَيْرِ الْأَكْفَاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ، طَمَعًا فِي مَالِهِمْ، وَاسْتِجْلَابًا لِرِفْدِهِمْ (طَلَبًا لِمَا يُعْطُونَهُ إِيَّاكَ مِنَ الْعَطَايَا).»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «أَلِمِثْلِي يُقَالُ هَذَا الْكَلَامُ؟ أَتَقْبَلُ فِي نَزَاهَتِي مَطْعَنًا؟ أَمَا — وَاللهِ — لَوْ قَالَهَا غَيْرُكَ لَكَانَ لِي مَعَهُ شَأْنٌ آخَرُ، وَلَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ (فَمِهِ)!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَمَا — وَاللهِ — لَوْ غَيْرُ «كَسْيَاسَ» اقْتَرَفَ (ارْتَكَبَ) مِثْلَ هَذَا الْإِثْمِ، لَاسْتَحَقَّ مِنِّي أَعْدَلَ الْقِصَاصِ (الْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ).»

فَصَاحَ «كَسْيَاسُ»: «هَلْ بَلَغَ الْأَمْرُ حَدَّ الْقِصَاصِ؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَنَسِيتَ مُنْتَصَفَ مَارِسَ؟ خَبِّرْنِي: فِي أَيِّ سَبِيلٍ قَتَلْنَا «قَيْصَرَ»؟ أَلَيْسَ فِي سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ قَتَلْنَاهُ؟ فَكَيْفَ نَغْتَالُ سَيِّدَ «رُومَةَ» وَنَفْتِكُ بِهِ، مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ نَغْفِرُهُ لِمِثْلِكَ وَلِمِثْلِ قُوَّادِكَ الْمُرْتَشِينَ؟ قُلْ لِي: كَيْفَ أَتَغَاضَى عَنِ اللُّصُوصِ، وَأَصْفَحُ عَنِ الْأَثَمَةِ، وَأَخُونُ وَطَنِي، وَأَخْفِرُ عَهْدِي (أَنْقُضُهُ)، وَأَعُقُّ ضَمِيرِي؟ خَبِّرْنِي: كَيْفَ أَقْبَلُ شَفَاعَتَكَ فِي مُجْرِمٍ أَثِيمٍ؟ إِنِّي لَأُوثِرُ أَنْ أُمْسَخَ كَلْبًا عَلَى أَنْ أَكُونَ رُومَانِيًّا آثِمًا!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «أَلَا لَا تُحَاوِلَنَّ أَنْ تَأْخُذَنِي بِمِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ الْخَادِعَةِ، وَتَسْحَرَنِي بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْخَلَّابَةِ! فَإِنِّي لَنْ أَحْتَمِلَ مِنْكَ هَذِهِ الْإِهَانَةَ، وَلَنْ أَصْبِرَ عَلَى تَطَاوُلِكَ بَعْدَ الْآنَ! أَنَسِيتَ أَنَّنِي أَقْدَمُ مِنْكَ عَهْدًا بِالْجُنْدِيَّةِ، وَأَوْفَرُ مِنْكَ تَجْرِبَةً؟ فَكَيْفَ تُلْصِقُ بِي مِثْلَ هَذِهِ الشُّنَعِ (الْفَضَائِحِ)؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَقْصِرْ (كُفَّ عَنِ الْكَلَامِ)، فَمَا أَنْتَ بِذَاكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «حَذَارِ أَنْ تَمْتَحِنَ صَبْرِي، يَا «بُرُوتَسُ»؛ فَمَا أَنَا بِغَافِرٍ لَكَ إِسَاءَةً بَعْدَ هَذِهِ. وَمَا أَجْدَرَكَ أَنْ تُؤْثِرَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «مَا أَحْقَرَ وَعِيدَكَ، وَمَا أَعْجَزَكَ عَنْ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَذَيَانِ!»

(٣) حِوَارٌ صَاخِبٌ

وَهُنَا ثَارَ «كَسْيَاسُ»، وَاشْتَدَّ غَيْظُهُ، وَنَشَبَتْ مُلَاحَاةٌ (ثَارَتْ مُشَاتَمَةٌ) صَاخِبَةٌ بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ. فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُهْتَاجًا: «كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَيَّ، وَزَيَّنَ لَكَ الْغُرُورُ أَنْ تَرْكَبَ هَذَا الْمَرْكَبَ الْوَعْرَ (الصَّعْبَ)؟ إِنَّنِي لَا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا تَسْمَعُهُ أُذُنَايَ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «خُذْهَا كَلِمَةً حَاسِمَةً: أَتَرَانِي أَفْرَقُ (أَتَظُنُّنِي أَخَافُ) وَأَجْزَعُ لِصَخَبِ أَحْمَقَ، أَوْ هَذَيَانِ مَجْنُونٍ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «يَا لِلهِ! كَيْفَ أَحْتَمِلُ هَذِهِ الْجُرْأَةَ؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «مَا أَجْدَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ أَضْعَافَ مَا سَمِعْتَ، حَتَّى تَنْشَقَّ مَرَارَتُكَ غَيْظًا، وَيَنْفَطِرَ قَلْبُكَ حُزْنًا! وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ سَوَّلَتْ (زَيَّنَتْ) لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تُفَاخِرَنِي وَتُكَاثِرَنِي مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخْشَى عَاقِبَةَ هَذَا الطَّيْشِ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحْجَى (أَجْدَرَ وَأَوْلَى) بِكَ، وَأَهْدَى لَكَ: أَنْ تَرْعَدَ وَتَثُورَ عَلَى خَدَمِكَ وَأَرِقَّائِكَ؟ إِنَّكَ — لَوْ فَعَلْتَ — لَرَأَيْتَ فَرَائِصَهُمْ تَرْتَعِدُ، خَوْفَ تَهْدِيدِكَ، وَرَهْبَةَ وَعِيدِكَ (وَالْفَرَائِصُ: هِيَ مَا بَيْنَ الْجُنُوبِ وَالْأَكْتَافِ). أَمَّا أَنَا فَلَأَتَّخِذَنَّكَ — مُنْذُ الْآنَ — ضُحْكَةً (وَهُوَ مَا يُضْحَكُ مِنْهُ)، وَلَأَلْهُوَنَّ بِكَ مَا حَيِيتُ؛ لِأَتَفَكَّهَ بِغَضَبِكَ، وَأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي بِإِيلَامِكَ وَتَنْغِيصِ عَيْشِكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أُرَاكَ إِلَّا مُتَمَادِيًا فِي الْإِسَاءَةِ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَقَدْ فَاخَرْتَنِي بِأَنَّكَ أَجْلَدُ مِنِّي عَلَى الْقِتَالِ وَأَقْوَى، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَخْبَرُ بِالْحَرْبِ وَأَدْرَى؛ فَهَلَّا حَقَّقْتَ مَا زَعَمْتَ وَأَرَيْتَنِي كَيْفَ بَصَرُكَ بِالْعِرَاكِ، وَمَعْرِفَتُكَ بِالْمُحَارَبَةِ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَكْثَرَ مَا تَتَجَنَّى عَلَيَّ، يَا «بُرُوتَسُ» (مَا أَكْثَرَ مَا تَنْسُبُهُ إِلَيَّ مِمَّا لَمْ يَقَعْ مِنِّي)! فَقَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّنِي أَقْدَمُ عَهْدًا، وَأَوْفَرُ تَجْرِبَةً، وَلَمْ أَقُلْ: إِنَّنِي أَشْجَعُ مِنْكَ وَأَقْدَرُ.»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَوْ قُلْتَهَا لَمَا أَبَهْتُ لَكَ (لَمَا اهْتَمَمْتُ بِكَ)، وَلَا أَقَمْتُ لِمَا تَقُولُ وَزْنًا!» فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ «قَيْصَرَ» نَفْسَهُ مَا كَانَ لِيَجْتَرِئَ عَلَيَّ — فِي حَيَاتِهِ — فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلْتَ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ لِتَجْرُؤَ عَلَى اسْتِثَارَةِ «قَيْصَرَ» وَإِغْضَابِهِ، وَلَوْ عَرَّضَ حَيَاتَكَ لِلتَّلَفِ.»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ لِكُلِّ بِدَايَةٍ نِهَايَةٌ، وَإِنَّ لِلْحِلْمِ غَايَةً لَا سَبِيلَ إِلَى تَجَاوُزِهَا. وَمَا أَخْوَفَنِي أَنْ أُقْدِمَ عَلَى أَمْرٍ جَلَلٍ (عَظِيمٍ خَطِيرٍ) أَنْدَمُ عَلَيْهِ بَعْدُ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَا عَلَيَّ (لَا ضَيْرَ وَلَا خَوْفَ مِنْ وَعِيدِكَ)، فَإِنِّي — بِمَا لِي مِنَ الشَّرَفِ وَالنَّزَاهَةِ — لَفِي حِصْنٍ حَصِينٍ، وَلَنْ يَبْلُغَ وَعِيدُكَ مِنِّي إِلَّا مَا تَبْلُغُ الرِّيحُ مِنْ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ! أَتَذْكُرُ كَيْفَ ضَنِنْتَ عَلَيَّ بِالْمَالِ أُنْفِقُهُ عَلَى جَيْشِي؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَذْكُر أَنَّنِي ضَنِنْتُ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُ، وَلَكِنَّهَا حَمَاقَةُ الرَّسُولِ، وَأَفَنُ رَأْيِهِ (سُوءُ تَدْبِيرِهِ). وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ — إِنْ كُنْتَ صَدِيقًا — أَنْ تَغْفِرَ لِصَدِيقِكَ هَنَوَاتِهِ، وَتَتَجَاوَزَ عَنْ إِسَاءَاتِهِ؛ فَإِنَّ عَيْنَ الْحُبِّ عَمْيَاءُ، لَا تَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاوِئِ وَالْعُيُوبِ.» فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّ عَيْنَ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ هِي — وَحْدَهَا — الَّتِي تَعْمَى عَنِ الْغَلَطِ، وَلَا تَرَى الْعُيُوبَ، وَلَوْ عَظُمَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ مِثْلَ الْجَبَلِ.»

(٤) صُلْحُ الصَّدِيقَيْنِ

فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُتَأَلِّمًا: «هَلُمَّ يَا «أَنْطُنْيُوسُ» وَيَا «أُكْتَفْيُوسُ»، وَتَعَالَيَا إِلَى «كَسْيَاسَ»، فَاقْتُلَاهُ، وَأَزْهِقَا رُوحَهُ؛ فَقَدْ مَلَّ الْبَقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ قَلْبُ صَفِيِّهِ الْحَبِيبِ «بُرُوتَسَ»، وَتَنَكَّرَ لَهُ أَوْفَى النَّاسِ، وَأَبَرُّهُمْ بِهِ.

أَلَا لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — بَعْدَ أَنْ فَسَدَ مَا بَيْنَنَا مِنْ حُبٍّ وَإِخْلَاصٍ. فَهَاكَ خِنْجَرِي، فَأَغْمِدْهُ فِي قَلْبِي، وَأَرِحْنِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ!»

فَهَشَّ لَهُ «بُرُوتَسُ» وَبَشَّ، وَقَالَ لَهُ: «أَغْمِدْ خِنْجَرَكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — فَإِنِّي مُتَجَاوِزٌ لَكَ عَنْ كُلِّ مَا حَدَثَ، وَمُعْتَذِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ إِسَاءَةٍ بَدَرَتْ مِنِّي. وَلْتَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ قَلْبِي لَا يَحْمِلُ حِقْدًا وَلَا ضِغْنًا: فَهُوَ كَالزَّنْدِ: إِذَا أَوْرَيْتَهُ (قَدَحْتَ بِهِ لِتُخْرِجَ نَارَهُ) أَرْسَلَ شَرَارَةً ضَئِيلَةَ الْخَطَرِ (حَقِيرَةَ الشَّأْنِ)، ذَاهِبَةً فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ الزَّنْدُ أَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ.»

وَهَكَذَا تَصَافَحَ الصَّدِيقَانِ، وَعَادَ إِلَى قَلْبَيْهِمَا الصَّفَاءُ، وَشَدَّ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى يَدِ الْآخَرِ، مُجَدِّدِينَ الْعَهْدَ عَلَى الْوَفَاءِ.

وَقَدْ حَزِنَ «كَسْيَاسُ» حِينَ أَخْبَرَهُ «بُرُوتَسُ» أَنَّ مَبْعَثَ آلَامِهِ وَحَنَقِهِ عَلَيْهِ، مَا بَلَغَهُ عَنْ مَصْرَعِ زَوْجِهِ «پُرْشَا». فَقَدْ عَلِمَ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — أَنَّ غِيَابَهُ قَدْ أَضْنَى جِسْمَهَا، وَأَذْهَلَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَأَلُّبِ أَعْدَائِهِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِ؛ فَقَتَلَتْ نَفْسَهَا إِشْفَاقًا عَلَى «بُرُوتَسَ»، حَتَّى لَا تَرَى — بِعَيْنَيْهَا — مَصْرَعَهُ الْوَشِيكَ.

فَشَارَكَهُ «كَسْيَاسُ» فِي حُزْنِهِ، وَأَسَاهُ فِي مُصَابِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «لَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا إِلَّا الْجِدُّ وَالْإِقْدَامُ، حَتَّى لَا يَدْهَمَنَا الْأَعْدَاءُ.»

ثُمَّ وَدَّعَ كُلٌّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَا فِي الْغَدِ.

(٥) طَيْفُ «قَيْصَرَ»

وَقَضَى «بُرُوتَسُ» لَيْلَةً مُفْزِعَةً، مُسْتَسْلِمًا لِأَشْجَانِهِ، وَهُمُومِهِ وَأَحْزَانِهِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي وَسَاوِسِهِ يُقَلِّبُ بَعْضَ أَوْرَاقِهِ، إِذْ لَاحَ أَمَامَهُ شَبَحُ «قَيْصَرَ» فِي هَيْئَةٍ مُزْعِجَةٍ؛ فَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ، وَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى، وَصَاحَ فِيهِ مَذْعُورًا: «أَيُّ طَيْفٍ أَنْتَ؟ فَقَدْ أَزْعَجْتَنِي، وَكَادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي لِرُؤْيَتِكَ.»



فَقَالَ لَهُ الطَّيْفُ: «لَسْتُ إِلَّا رُوحَكَ الْخَبِيثَةَ، يَا «بُرُوتَس»!»

فَقَالَ لَهُ وَجِلًا: «فَمَا بَالُكَ تَزُورُنِي الْآنَ؟»

فَقَالَ لَهُ طَيْفُ «قَيْصَرَ»: «إِنَّمَا زُرْتُكَ لِأُخْبِرَكَ بِأَنَّ لِقَاءَنَا وَشِيكٌ (قَرِيبٌ).»

ثُمَّ اسْتَخْفَى شَبَحُ «قَيْصَرَ» عَنْ نَاظِرِهِ. فَصَاحَ «بُرُوتَسُ» فَزِعًا رَاهِبًا؛ فَانْتَبَهَ خَادِمُهُ مَذْعُورًا مَرْعُوبًا، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ صِيَاحِهِ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَسْتُ أَذْكُرُ أَنَّنِي صِحْتُ، وَلَعَلَّكَ حَالِمٌ فِي هَذَا؛ فَخَبِّرْنِي: هَلْ أَبْصَرْتَ فِي مَنَامِكَ طَيْفًا؟»

فَقَالَ لَهُ خَادِمُهُ: «كَلَّا يَا سَيِّدِي، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا.»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَا عَلَيْكَ، فَاذْهَبِ الْآنَ إِلَى «كَسْيَاس»، وَاطْلُبْ إِلَيْهِ أَنْ يُبَكِّرَ فِي زَحْفِهِ، صَبَاحَ الْغَدِ، لِأَنَّنِي قَدِ اعْتَزَمْتُ مُهَاجَمَةَ الْأَعْدَاءِ فِي إِثْرِهِ، وَإِنَّا عَلَيْهِمْ لَمُنْتَصِرُونَ!»

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

(١) قُبَيْلَ الْمَعْرَكَةِ

الْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي سُهُولِ «فِيلِبِّي»، وَتَحَفَّزَ الْجَمْعَانِ لِلاشْتِبَاكِ فِي الْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْعَدُوِّ قَضَاءً مُبْرَمًا، لَا تَقُومُ لَهُ قَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِهِ. وَتَشَاوَرَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«أُكْتَفْيُوسُ» فِي خُطَّةِ الْحَرْبِ مَلِيًّا، ثُمَّ قَرَّ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يَنْحَازَ أَحَدُهُمَا (يَرْتَدُّ وَيَمِيلُ) إِلَى يَمِينِ السَّهْلِ، وَيَذْهَبَ الْآخَرُ إِلَى الشِّمَالِ.

وَرَأَى زُعَمَاءُ الْمُتَحَارِبِينَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُبَيْلَ الزَّحْفِ. وَدَارَتْ بَيْنَ «أَنْطُنْيُوسَ» وَ«كَسْيَاسَ» مُلَاحَاةٌ (مُشَاتَمَةٌ) صَاخِبَةٌ، ثُمَّ قَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «لَيْسَ لَنَا بُدٌّ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكُمْ، بَعْدَ أَنْ غَدَرْتُمْ بِـ«قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَقَتَلْتُمُوهُ غِيلَةً (مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي). وَقَدْ كُنْتُمْ — فِي حَيَاتِهِ — تَرْجُفُونَ (تَضْطَرِبُونَ)، وَتُقَبِّلُونَ مَوَاطِئَ نِعَالِهِ، وَلَا تَأْلُونَ جُهْدًا فِي تَمْلِيقِهِ وَالتَّزَلُّفِ إِلَيْهِ.»

فَأَجَابَهُ «كَسْيَاسُ»: «لَوْ أَنَّ «بُرُوتَسَ» أَخَذَ بِرَأْيِي فِي قَتْلِكَ — بَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَا «قَيْصَرَ» — لَأَسْكَتْنَا لِسَانَكَ السَّلِيطَ (الطَّوِيلَ)، وَارْتَحْنَا مِنْ مُبَاهَاتِكَ الْجَوْفَاءِ (الْفَارِغَةِ). عَلَى أَنَّ السَّيْفَ كَفِيلٌ بِالْقَضَاءِ بَيْنَنَا جَمِيعًا، وَهُوَ قَاضٍ عَادِلٌ، لَا يُرَدُّ لَهُ حُكْمٌ، وَلَا يُنْقَضُ لَهُ أَمْرٌ.»

(٢) هَزِيمَةُ «أُكْتَفْيُوسَ»

وَطَالَ الْحِوارُ بَيْنَ الْمُتَنَاظِرَيْنِ؛ فَامْتَشَقُوا سُيُوفَهُمْ (شَهَرُوهَا). وَالْتَقَتِ الْجُيُوشُ، وَاسْتَبْسَلَ جُنُودُ الْفَرِيقَيْنِ، وَالْتَحَمَ جَيْشُ «بُرُوتَس» بِجَيْشِ «أُكْتَفْيُوسَ» فِي مَيْدَانٍ، وَالْتَقَى جَيْشُ «أَنْطُنْيُوسَ» بِجَيْشِ «كَسْيَاسَ» فِي مَيْدَانٍ آخَرَ.

وَكَانَتِ الْقُوَى مُتَكَافِئَةً — فِي أَوَّلِ الْمَعْرَكَةِ — وَالنَّصْرُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ. ثُمَّ رَجَحَتْ — فِي مِيزَانِ الْقِتَالِ — كِفَّةُ «بُرُوتَس» عَلَى خَصْمِهِ «أُكْتَفْيُوسَ»، وَأَجْلَاهُ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ انْتِصَارًا بَاهِرًا.

(٣) مَصْرَعُ «كَسْيَاسَ»

وَقَدْ كَانَ أَحْجَى بِهِ أَنْ يَصْرِفَ جُهُودَهُ إِلَى مُهَاجَمَةِ «أَنْطُنْيُوسَ»، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّهِ. وَلَكِنَّ «بُرُوتَس» لَمْ يَفْعَلَ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنَكِّلَ بِخَصْمِهِ، وَيُحَرِّقَ خِيَامَهُ، وَيُخَرِّبَ سُرَادِقَاتِهِ، وَيُمْزِّقَ أَعْلَامَهُ وَرَايَاتِهِ.

وَنَظَرَ «كَسْيَاسُ»، فَرَأَى النَّارَ تَشْتَعِلُ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، فَلَمْ يَدْرِ مَكَانَهَا، عَلَى التَّحْقِيقِ. وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ خَصْمُهُ «أَنْطُنْيُوسُ» قَدْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي خِيَامِهِ — بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ — فَأَرْسَلَ قَائِدَهُ «تِتِنْيُوسَ»، لِيَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ. وَمَا ذَهَبَ «تِتِنْيُوسُ» حَتَّى قَدِمَ خَادِمُ «كَسْيَاسَ» عَابِسَ الْوَجْهِ، كَالِحَ اللَّوْنِ: فَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ أَنَّ «أَنْطُنْيُوسَ» قَدْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى جَيْشِهِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَأْسِرَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

فَاشْتَدَّ جَزَعُ «كَسْيَاسَ»، وَحَسِبَ خَادِمَهُ مُتَثَبِّتًا مِمَّا فَاهَ (نَطَقَ) بِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «هَاكَ سَيْفِي — يَا غُلَامُ — فَاقْتُلْنِي بِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْفَرَ بِي «أَنْطُنْيُوسُ»؛ فَإِنَّ الْحِمَامَ (الْمَوْتَ) خَيْرٌ — عِنْدِي — مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ.» وَلَمْ يَكَدْ «بِنْدَارُوسُ» يُلَبِّي أَمْرَ سَيِّدِهِ مُضْطَرًّا، حَتَّى قَدِمَ الْقَائِدُ «تِتِنْيُوسُ» يَحْمِلُ أَنْبَاءَ النَّصْرِ، لِيَزُفَّهَا إِلَى «كَسْيَاسَ». وَلَا تَسَلْ عَنْ جَزَعِ الْقَائِدِ حِينَ رَأَى مَصْرَعَ صَاحِبِهِ، فَقَدْ بَلَغَ حَدًّا لَا يُوصَفُ.

(٤) مَصْرَعُ «بُرُوتَسَ»

وَلَمْ يَكَدْ «بُرُوتَسُ» يَتَعَرَّفُ هَذَا النَّبَأَ الْهَائِلَ، حَتَّى دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ السُّبُلُ، وَأَيْقَنَ أَنَّ رُوحَ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ قَدِ انْتَصَرَتْ عَلَيْهِمْ بِقُوَّتِهَا بَعْدَ مَوْتِهِ. وَسَمِعَ جُنْدَهُ يَتَوَاصَوْنَ بِالْفِرَارِ؛ فَتَحَطَّمَتْ آمَالُهُ، وَشَعَرَ بِعَجْزِهِ عَنْ مُقَاوَمَةِ أَعْدَائِهِ، وَرَأَى خِذْلَانَهُ؛ فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْمَوْتِ مُنْقِذًا مِنَ الْوَرْطَةِ، وَمُخَلِّصًا مِنَ الْمَأْزِقِ.

وَرَأَى «أَنْطُنْيُوسَ» وَصَاحِبَهُ «أُكْتَفْيُوسَ» يَقْتَرِبَانِ مِنْهُ، فَقَالَ: «الْآنَ لَا خَيْرَ لِي فِي الْحَيَاةِ. فَوَدَاعًا أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، فَإِنِّي قَاتِلٌ نَفْسِي بِالسَّيْفِ الَّذِي أَغْمَدْتُهُ فِي صَدْرِ «قَيْصَر»! ...»

ثُمَّ قَالَ: «لِتَهْدَأْ رُوحُكَ السَّاخِطَةُ — يَا «قَيْصَرُ» — فَإِنِّي مُنْتَقِمٌ لَكَ مِنْ نَفْسِي!»

وَمَا أَتَمَّ آخِرَ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، حَتَّى سَدَّدَ سَيْفَهُ إِلَى قَلْبِهِ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا عَلَى الْأَرْضِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ.

(٥) مَرْثِيَّةُ «أَنْطُنْيُوسَ»

وَلَمَّا قَدِمَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«أُكْتَفْيُوسُ» رَأَيَاهُ جُثَّةً هَامِدَةً؛ فَجَزِعَا لِمَصْرَعِهِ، وَأَضْنَاهُمَا الْحُزْنُ وَالْكَمَدُ.

وَرَثَاهُ «أَنْطُنْيُوسُ» قَائِلًا: «لَقَدْ كُنْتَ أَنْبَلَ رُومَانِيٍّ، وَيَعْلَمُ اللهُ أَنَّكَ مَا قَتَلْتَ «قَيْصَرَ» عَنْ حِقْدٍ وَكَرَاهِيَةٍ وَجُحُودٍ (إِنْكَارٍ لِلْفَضْلِ)، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الدَّنِيَّةَ (الْفَعْلَةَ الْحَقِيرَةَ)، وَلَمْ تَكُنْ فِي شَمَائِلِكَ (أَخْلَاقِكَ) غَادِرًا وَلَا حَاسِدًا، وَلَكِنَّ «كَسْيَاسَ» الْأَثِيمَ هُوَ الَّذِي زَيَّنَ لَكَ هَذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ، وَأَدْخَلَ فِي رُوعِكَ (قَلْبِكَ)، أَنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِكَ، وَخَيْرِ وَطَنِكَ، يُحَتِّمَانِ عَلَيْكَ اغْتِيَالَ «قَيْصَرَ»؛ فَأَوْدَى (مَاتَ) مَبْكِيًّا، وَأَوْدَيْتَ مَأْسُوفًا عَلَيْكَ!»



ثُمَّ خَتَمَ رِثَاءَهُ الْبَلِيغَ قَائِلًا:

«إِنْ يَخْدَعِ الْأَشْرَارُ أَنْبَلَ مَنْ وَفَى،   وَأَبَرَّ مَنْ عَادَى، وَأَكْرَمَ مَنْ مَجَدْ
أَوْ يَقْتُلِ الْأَشْرَارُ «قَيْصَرَ رُومَةٍ»   بَغْيًا، وَقَدْ أَضْنَى قُلُوبَهُمُ الْكَمَدْ
فَعِصَابَةُ الشَّيْطَانِ أَلْأَمُ عُصْبَةٍ   قَدْ سَجَّلَتْ — بِجُحُودِهَا — عَارَ الْأَبَدْ
إِلَّا «بُرُوتَسَ» وَحْدَهُ — مِنْ بَيْنِهِمْ —   إِنَّا عَرَفْنَا نُبْلَهُ فِيمَا قَصَدْ
كَانُوا جَمِيعًا — مَا خَلَاهُ — حُسَّدًا،   ذَابَتْ قُلُوبُهُمُ، وَأَشْقَاهَا الْحَسَدْ
حَيُّوا «بُرُوتَسَ»، وَاهْتِفُوا بِخِلَالِهِ   حَيًّا، وَحَيُّوا جِسْمَهُ لَمَّا هَمَدْ
فَلَيُثْبِتَنَّ الدَّهْرُ — مِنْ آيَاتِهِ —   سَطْرًا، إِذَا مُحِيَتْ صَحَائِفُنَا خَلَدْ
وَيَقُولُ: كَانَ «بُرُوتَسْ» رَجُلًا، وَمَا   عَرَفَ الدَّنِيَّةَ — فِي شَمَائِلِهِ — أَحَدْ
وَيَقُولُ: أَوْدَى فَخْرُ «رُومَةَ» كُلِّهَا   وَأَجَلُّ ذِي فَضْلٍ تَسَامَى وَانْفَرَدْ.»